2272
.68942
.M66
.331

2272.68942.M66.331
al-Mullā
Durūb al-nīrvānā

DATE	ISSUED TO
NOV 20 '81	

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072571530

غياث الدين الملا

دروب النيرفانا

بحوث استطرادية في العلم والأدب والفلسفة

ان هؤلاء الذين تمكنوا من النفاذ الى سر السعادة المطلقة وتمتعوا بالغبطة الخالدة هم الذين تحرروا من ربقة عبودية المادية والانانية ومارسوا الصدق والتصدق والعلم والاحسان والصبر والمثابرة ، لأن الارتقاء في معارج النيرفانا قوامه الايمان الصحيح والخلق الحسن .

بوذا

المطبعة العمومية بدمشق

غياث الدين الملا

al-Mullā, Ghiyāth al-Dīn

دروب النيرفانا

بحوث استطرادية في العلم والأدب والفلسفة

Durūb al-Nirvāna

ان هؤلاء الذين تمكنوا من النفاذ الى سر السعادة المطلقة وتمتعوا بالغبطة الخالدة هم الذين تحرروا من ربقة عبودية المادية والانانية ومارسوا الصدق والتصدق والعلم والاحسان والصبر والمثابرة ، لأن الارتقاء في معارج النيرفانا قوامه الايمان الصحيح والخلق الحسن .

بوذا

المطبعة العمومية بدمشق

لقد جرى طبع خمسين نسخة من هذا الكتاب على ورق « تكست » لاستعمال المؤلف الخاص ومئتي نسخة على ورق « كورسيكان » مرقمة من ١ الى ٢٠٠ للمكاتب الرسمية والباقي على ورق « رجستر » لجمهور القراء .

مراجع الكتاب

١ـ في اللغة العربية

القرآن الكريم

العهد القديم والعهد الجديد

رياض الصالحين . . . . . الامام يحيى بن شرف النووي

الجامع الصغير . . . . . الامام الحافظ السيوطي

النشوء والارتقاء . . . . . تشارلز روبرت داروين

فلسفة الطب . . . . . الدكتور حسني سبح

علم الاجتماع . . . . . الدكتور عبد الكريم اليافي

الافكار والمرض . . . . . السي ماك ورسيك

الانسان . . . . . الدكتور الكسيس كاريل

الغرائز المرضية . . . . . الدكتور احمد منيف العائدي

تكوين الجنين . . . . . مارجريت جلبرت

مباحث علوم القرآن المجيد . . . . الشيخ محمد العربي العزوزي

ابو ذر الغفاري . . . . . عبد الحميد جودة السحاري

(RECAP)

2272
.68942
.M66
.331

٢ ـ في اللغات الاجنبية

LA SITUATION DANS LA SCIENCE BIOLOGIQUE EN U.R.S.S.	
PRECIS DE PATHOLOGIE GENERALE	DR. A. LIBERT
DU CRETIN AU GENIE	DR. S. VORONOFF
L' AMOUR ET LA PENSEE	DR. S. VORONOFF
DAS BLUT	DR. L. HEILMEYER
MAN DOES NOT STAND ALONE	DR. A. MORRISON
HISTOIRE UNIVERSELLE	ÇESAR CANTU
PHILOSOPHES ANCIENS ET MODERNES	ANDRE CRESSON
REVUE DES SAVANT	AOUT 1934

الإهـــداء

الى الزميلة الصديقة التي شاء لها
سوء طالعها أن تصبح زوجتي .

المقدمة

مصباح ديوجين (١)

ان دعوة العقل الى اعتلاء منصة تحميه في احكامه العادلة على أعراف جائرة ،مهمة لاشك في صعوبتها ؛ ومن العبث ان نتظاهر باللامبالاة ازاء ابحاث وثيقة الصلة باعماق طبائع الانسان الحي .

عمنوئيل كانت

١ــ فيلسوف يوناني ولد عام ٤١٣ قبل المسيح في بلدة « سينوب » كان يدعو الى الحياة الطبيعية ونبذ المظاهر . وقد اشتهر بمصباحه الذي كان يحمله نهارا في شوارع اثينا بحثا عن الانسان .

في صفحات لها خالدة مشرقة ، قصّت علينا كتب تاريخ العلوم أخباراً صحيحة عن حقائق علمية مذهلة ، خرج بها على الناس [1] في مختلف العصور نفر من العلماء والحكماء والفلاسفة الاقدمين ، وأنبأتنا كيف أن هذه الحقائق ما لبثت ان انكفأت على نفسها وقبعت في زاوية مهملة من تاريخها لأنها عجزت في حينها عن أن تأخذ طريقها إلى عقول ابناء عصرها ، بسبب نقص في مقوّمات سعيها ، هو فقدان الدلالة المادية المؤكدة لصحتها .

ان طبيعة حياتنا المادية تضطر عقولنا على أن يلتزم نشاطها الآفاق المادية والمجالات الحسّية ، فاذا ما صادفها مالا تحدّه مجالاتها او لا يرقى اليه افقها ، انكرته واوصدت

---

١ ــ كالبحث في كروية الارض قبل الفي عام والبحث في الجاذبية الارضية قبل عشرة قرون .

من دونة تزمتاً ابوابها ، فالجأته على ان يرجع عنها ليهيم عبر القرون في فضاء اللانهاية مترقباً ، كيما يعود ثانية ، ظروفا اكثر ملاءمة واضمن للاقامة الدائمة .

ولو اننا تنازلنا عن ذلك التزمت العقلي والانانية العلمية ، ان صح التعبير ، او كنا وعينا قول ذلك الحكيم الاغريقي الكبير الذي يزعم ان كل ما تعلمناه وعرفناه واكتشفناه لا يعدو ان يكون قطرة من بحار مالا نزال نجهله ، لجنّبنا الانسانية خسارة اكيدة ودفعنا بالعلم والحضارة الى الامام قروناً عدة .

ان العقل والعلم والمنطق ، كلها امور نسبية ليس لها أية صفة مطلقة . فنظرية « نيوتن » في الجاذبية مثلاً ، تفقد كل قيمتها التطبيقية خارج نطاق اجواء الكرة الارضية ، وما اتفقنا على تسميته باللاشعور [1] ، هو في الواقع الشعور الصحيح الساهر أبداً ليل نهار ، وما نحكم بانعدام المنطق

---

١ ــ العقل الباطن .

فيه ، تتولّى نتائجه مهمة اثبات الحكمة منه[1] .

لذا فاننا سوف نسعى معاً لاستجلاء غوامض هذا التناقض الظاهر ، لننفذ منه الى عالم الميتافيزية ، فنستعرض ظواهرها المتفق على صحتها ، ثم نستخلص من هذه الظواهر فرضيّات نقيم بينها وبين العقائد السائدة مقارنة صريحة ، فلا ندري الاّ ونحن في قلب المعضلة ، نمسك بأيدينا خيوط العقدة الاصلية[2] .

ان هذا الكتاب ليس بحد ذاته سفراً علميّاً كله ليكون مرجعاً وحجة . انه مجموعة خواطر وملاحظات وبحوث استطرادية في العقل والجسم والعقيدة ، يقر العلمُ مبدأها إقراراً لا جدال فيه ، وضعناه ليكون قبساً يستأنس به روّاد الحقيقة الخالصة ، واداة صالحة يستعين بها المكافحون في سبيل المثل والحرية الفكرية .

---

١ – قصة نوح عليه السلام ، وقصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، وتعاليم المسيح عليه السلام في التضحية والمحبة الخ . . .

٢ – هي اسئلة كيف ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ في عالم الميتافيزية .

الفصل الأول

نحن وعقولنا

ولما عولت على ان اعتبر ما لا يقبله عقلي مجرد خيال واوهام ، تنبهت الى ان شخصي الذي يفكر بمثل ذلك لابد ان يكون كائناً حسياً .

رينه ديكارت

قدم العالم « سرج فورونوف » في كتاب له نشره في باريس عام ١٩٣٦ تحت عنوان « الحب والفكر لدى الانسان والحيوان » دراسة مستفيضة عن احاسيس الحيوانات وتفكيرها واورد امثلة قال انها واقعية ، دلل بها على ان اكثر هذه الحيوانات ، ان لم تكن كلها ، تتصرف بوحي من فكرها في ظروف لاعلاقة للغريزة بها ، وان رد الفعل لدى قسم منها ، في بعض الظروف الطارئة ، لم يكن ليختلف عن رد الفعل لدى الانسان في عين هذه الظروف ، وان منها من يضم بين جنباته روحاً تكاد تكون خلاّقة. ثم استخلص من هذه الوقائع قواعد ثابتة اصبحت في ما بعد حقائق علمية ، نتيجة دراساته الدقيقة ، ضمّنها كتاباً آخر له ، نشره في نيويورك تحت عنوان « من

البرهة الى العبقرية » وقال فيه بان الابحاث المجهرية اثبتت ان خلايا المخ في الحيوانات الراقية لاتختلف في مجموع تركيبها عن خلايا المخ في الانسان ، ولو انها اقل نقاء واضعف تطوّراً ،وان اخاخ قردة الشمبانزي والاورانج-اوتانج والغوريلاّ ، لاتختلف عن اخاخنا الاّ بقلة عدد تلافيفها ، وان الفارق فيها لا يكمن في النوع ولا في الشكل ، بل في درجة التطور فقط ، وان الروابط التي تصل بين مادة المخ وبين الفكر هي بالتأكيد نفسها في الانسان والحيوان معاً .

— فاي شيء هو الفكر ؟

— هل هو عنصر مادي ام عنصر معنوي ؟

— هل هو نتاج تفاعل مادة المخ او انه اشعاع الروح عن طريق هذه المادة ؟

ثم المخ بذاته ، هل هو مصنع مستقل يعمل تلقائيّاً أم أنه آلة تستعين بها الروح لاستنباط الفكر ؟ هل هو

المفكّر ام انه واسطة التفكير ؟

فاذا سلّمنا بان الروح هي التي تستعين بالمخ لاخراج الفكر، فهل يمكن أن نسلّم بانها هي التي تبعث فينا الافكار السامية والعاديه والمنحطة على السواء ؟ إن قبولنا بالمبدأ الاوّل يضطرنا الى قبول المبدأ الثاني لعدم امكان التفريق بين تأثير الروح وآلية التفكير ، لأن المخ ، اذا كان عبارة عن آلة بيد الروح ، فانه عاجز عن أن يعمل بمفرده ؛ واذا ماعمل تلقائياً ، فانه لا يعود آلة ، بل واسطة ايجابية باعثة للأفكار وفي جملتها المنحطة منها . ولكن هذا التسليم يتنافى تماماً مع ما هو متفق عليه من سمو الروح وتنزهها ، خصوصاً اذا نحن اخذنا بمبدأ مادية التفكير ، لان المخ الذي هو مادة ، لا يمكن أن يستولد من ذاته عنصراً غير مادي .

— فأي شيء هو الفكر ؟

اننا نعلم بان كل فكرة طارئة او شعور عابر يصحبه تيار كهربائي يصدر عن خلايا المخ دلت على وجوده

آلات حديثة [1] تتلخص في قطبين مثبتين على طرفي الرأس ومتصلين بمحوّل ومنه الى مسجّلة تظهر بوضوح صفة تلك الفكرة، هادئة كانت او عنيفة، ونوع ذلك الشعور مفرحاً كان او مؤلماً؛ لأن رد الفعل الفيزيا ـ كيميائي في المخ يتبدل مع كل فكرة او شعور او اي مظهر من مظاهر نشاطه. ولكن المخ ليس في الواقع الا كتلة رمادية اللون مكونة من مادة بروتوبلازميّة نعرفها تشريحياً حق المعرفة، فما الذي تستطيعه هذه المادة؟ انها، من الناحية العلمية، لا تستطيع أن تصيغ بحد ذاتها غير اشياء مادية، لان المادة لا تصنع الاّ مادة، وكل تبدل في عناصرها لا يمكن أن يكون إلاّ مادة.

فاذا استطعنا أن نرفع بشكل ما هذه الكتلة الرمادية

---

١ ـ ومثل هذه الآلة اصبحت من الاجهزة الاساسية في كثير من المستشفيات. ويقول العالم جاكوبسون، الاستاذ في جامعة شيكاغو، انه اذا اجتمع مليونا شخص وفكروا معا بامر واحد، فان التيار الناشيء عن تفكيرهم هذا بمقدوره أن يضيء مصباحاً كهربائياً طاقته الفا شمعة «واط».

مع احتمال بقاء الحياة، فانه من البديهي أنه لن يبقى عقل! اما إذا ضمرت، أو أصيب جزء منها، او انقطع عنها واحد من افرازات الغدد الصم، فان الاذى يصيب الملكات التي تتمركز في المنطقة المصابة دون غيرها، لأن مجمل المخ يتألف من مناطق معينة لكل واحدة منها مجال محدود من النشاط، وتختلف قيمها في ما بينها باختلاف مكان وجودها فيه. فالذكاء العام مثلاً يتمركز في المنطقة الجبهية، لذا فاننا نرى أن خلايا الناحية البارزة من هذه المنطقة شديدة النمو لدى كبار الفنانين [1]. وكذلك منطقة العلوم، فانها تقع في اجزائه الجانبية والخلفية، ويكون نموها شديداً لدى العلماء الى درجة يزيد معها حجم المخ زيادة محسوسة [2]. وتقع منطقة « بروكا » [3] في الجزء الأيسر من المخ،

---

١ ــ ثابت تشريحياً خصوصا من تشريح مخ الموسيقارين « باخ » و « بيتهوفن ».

٢ ــ تبين من تشريح المخ لثانية عشر عالم نمو غير عادي في الخلايا الواقعة في الاجزاء الجانبية والخلفية، وزيادة غير طبيعية في التلافيف والتموءات الدماغية.

٣ ــ نسبة الى الطبيب الذي اكتشفها، وهي مركز التعبير والفصاحة والخطابة.

وتكون مساحتها لدى مشاهير الخطباء أوسع مما هي عليه لدى الباقين بما في ذلك العلماء منهم، حتى أنها وصلت إلى الضعف في مخ الخطيب الشهير «غامبيتا»[1] وهي لدى الافريقيين محدودة جداً ومعدومة تقريباً لدى سكان القطب.

ان وجود هذه الاجزاء المعينة والمحددة تشريحيّاً في المخ، وتأثرها تأثراً مختلفاً عن بعضها رغم الوحدة التامة في نوعية المؤثرات، تدعونا لأن ننسب للمخ القدرة المستقلة على التفكير، ولو انها قدرة خاضعة لطبيعة تكوينه وانتظام تغذيته ودوام تموينه. فاذا قصرت مثلاً احدى الغدد الصم بوظيفتها، او توقفت عن تموين المخ بافرازاتها، تأثرت المنطقة التي تقع تحت نفوذها تأثراً مباشراً سيئاً تظهر علائمه فوراً مع دوام سلامة بقية المناطق. وكذلك

---

١ ــ محام ونائب فرنسي ولد عام ١٨٣٨ وتوفي عام ١٨٨٢. وقد امتاز بالخطابة والفصاحة.

يكون الامر اذا ماستهدف المخ لرجة شديدة في احد جوانبه أو أصيبت الجمجمة بكسر ادّى الى تمزق موضعي في قشرته

وازاء هذه المشاهدات والتجارب والاثباتات ، يتخذ سؤالنا شكلا آخر فيستوضح عن هذا الذي يدفع الغدة الى الافراز والدم الى الجريان وخلايا الدماغ الى التفاعل لصياغة الافكار والمشاعر ، والذي به تنبعث المادة الجامدة الميتة حية لتنطلق ساعية فى مجالات رقيها وتطورها .

ان عنصر الحياة هو العنصر الخفي العظيم الذي استودع في الخلية الأولى منذ ملايين السنين ، ثم توارثته الانواع جيلاً بعد جيل على مر الدهور . انه السر البديع المتربع في صدر كل خلية من خلايا الانسان والحيوان والنبات والذي بفضله نتحرك ونعمل ونتوالد ، والذي بواسطته تنبت الاشجار وتورق وتزهر وتثمر ، والذي بسر وجوده

ينفلق الحب [1] وتحيا الارض بعد موتها .

فالخلية بلا حياة ليست الاّ جزءاً من مادة ساكنة جامدة لا يمكن أن تصبح كائناً فعالاً إلاّ بوصول شعلة الحياة اليها . ولما كان الفكر هو من نتاج الخلية الحية بتأثير الافرازات العضوية والفيزيا ـ كيميائية التي تنتجها الغدد ، والتي يمكن تحليلها تحليلاً مخبرياً كاملاً ، فانه يحق لنا التساؤل عن الطريقة التي تتبعها مادة المخ في الافصاح المعنوي المحسوس عن تفاعلها الكيميائي .

من العلوم التي اصبحت معروفة ان كل مادة ترسل اشعاعاً خاصاً بها هو في الواقع بث متصل لذرات متناهية في الصغر من ذات عنصرها ، لا ترى لدقتها ولا ندرك وجودها لضعفها ، رغم شعورنا بتأثيرها وثبوت وجودها علمياً ، كأشعة رونتجن ، واشعاع الراديوم ، ونور

---

١ ـ عندما زرعت السلطة حبوب الحنطة التي عثر عليها في احد قبور الفراعنة في مصر ، نبتت هذه الحبوب واثمرت وكأنها بنت عامها .

الكواكب والتيار الكهربائي . فمادة المخ في تفاعلاتها الداخلية الخاطفة ، تبث أيضاً اشعاعاً من ذرات غير مرئية هي عنصر الفكر . واذا كان مصدر هذه الذرات لايتأثر ولا يتناقص على مر الأيام بالرغم من اشعاعه الدائم ، فذلك لأن جزئياته من الصغر بحيث يمكن اعتبارها بحكم جزئيات معدن الراديوم الذي يظل ميلليمتر مكعب منه يشع الف سنة دون أن يتأثر وزنه تأثراً يذكر

وهذه الاشعاعات الذاتية الصادرة عن كل مخ حي ، سريعة الانتقال سرعة التيار الكهربائي الذي ينقلها [1] ، وتؤثر ، بصفتها المادية النسبية ، في بقية الاخماخ الحية المماثلة بالتوجيه المباشر او عن طريق اجتذابها من الفضاء الواسع الذي تكون سابحة فيه ، من قبل الحجيرات الجاهدة في عين المعنى وبالتالي الباثة لتيارات مشابهة لها في التواتر والاتجاه ، فيتلقفها مكمن اللاشعور فيه ، فيعيد

---

١ – وهي ٥٣٠ الف كيلومتر في الثانية الواحدة .

تنسيقها ثم يعيدها الى العقل الواعي الذي يطلق عليها اسم الالهام . مثال ذلك ان العالم « اريستارك الساموسي »[1] الذي عاش في المئة الثالثة قبل الميلاد قد أكد أن الأرض كروية الشكل وانها تدور بانتظام في فلك كوكب الشمس ، فسخر منه معاصروه ، وظل الرأي القائل بان الشمس هي التي تدور حول الأرض هو السائد الى ان جاء « كوبرنيك »[2] فأيد علمياً اقوال « اريستارك » بعد الف وثمانمائة سنة من وفاته . فهل توصّل « كوبرنيك » بفضل جهده وحده الى ما توصّل اليه ام ان عقله العامل في عين مجال سلفه البعيد قد تأثر بافكار هذا السلف المعلّقة في فضاء اللانهاية منذ ذلك الحين ؟ بل هل كان

---

١ ــ اريستارك : عالم وفلكي يوناني اتهم بجرم الاخلال بنظام راحة الآلهة لقوله بنظرية دوران الارض حول محورها وحول الشمس وذلك في القرن الثالث قبل المسيح

٢ ــ نقولا كوبرنيك : عالم وفلكي بولوني ولد في بلدة « ثورن » عام ١٤٧٣ . اكد نظرية اريستارك وعممها على بقية الكواكب فاتهم من اجل ذلك من قبل البابا بالانتئات على تعاليم الكتب المقدسة .

« اريستارك » هو صاحب الفكرة الاوّل ام أنه أخذها بدوره عن غيره من السابقين ؟ وأية قيمة بقيت للزمن في كل هذا ؟

ومايقال في « اريستارك » يقال أيضاً في « تشارلز داروين »[1] واضع نظرية « اصل الانواع » . فقد جاء في كتب العلم والتاريخ ان العالم « انا كسيماندر »[2] قال بنفس النظرية عام اربعمائة وخمسين قبل المسيح ، اي انه سبق زميله الحديث بألفين وأربعمائة سنة . وحوالي ذلك التاريخ ايضاً خرج الفيلسوف « لوسيب »[3] الى العالم بنظرية علمية قال فيها أن الكائنات الحية بمجموعها مركبة من ذرات دقيقة دائمة الحركة قابلة للتوالد كما هي قابلة للهلاك ، الشيء الذي لم يصل اليه علماؤنا الاّ بعد دراسات طويلة

---

١ ــ تشارلز روبرت داروين : عالم بريطاني ولد في بلدة « شروسبوري » عام ١٨٠٩ ، صاحب النظرية العلمية المعروفة باسم الداروينية .

٢ ــ انا كسيماندر : عالم يوناني ولد عام ٦٤٧ وصاحب احدى نظريات اللانهاية .

٣ ــ لوسيب : فيلسوف يوناني صاحب نظرية في جزئية النوع والذرة .

تساندها آلات حديثة معقدة .

فلأي واحد من هؤلاء يعود شرف الاكتشاف الصحيح ؟ اللحديثين ام للرواد الاوائل ؟ حتى هؤلاء الاوائل ، اهم الاوائل فعلاً ؟

ان انتقال الافكار وقراءتها ، امران أصبحا ثابتين ومسلم بوجودهما كما لابد أن يكون الكثير قد شعر بهما ان لم يكن قد مارسهما بالذات . فلمَ لا تكون الافكار المنبعثة عن العقل ، طالما أنها غير موجهة توجيهاً معيّناً ، بعكس ما هو عليه الحال في التنويم المغناطيسي ، دائمة الوجود في الفضاء ، كالأحرف المعلّقة ، يحل رموزها ويقرؤها من جعله ظرفه في وضع يسهّل عليه هذه المهمّة اللاشعورية ؟

ان المخ والفكر عنصران لمادة واحدة هي مادة المخ ؛ اما الحياة فهي النفحة التي جمعت بينهما وألزمت الواحد بالآخر ، ودفعت بكل خلية من خلايا الجسد لتقوم بوظيفتها الآلية والكيميائية والنفسية ، لا فرق في ذلك

بين العالم والجاهل ، ولا بين الابله والعاقل ، ولا بين المحسن والمجرم ، لأن الاختلاف لاينحصر في وظيفة الخلية بل في نوع تركيبها الكيميائي .

ومن أشد الامثلة قوة للدلالة على ان الامر هو بالشكل الذي أوردناه ، مثال العبقرية التي هي في تعريف علم النفس قوة خلاقة والتي هي في الواقع موهبة طبيعية ذاتية ، مستقلة عن المقاييس العامة ، تأتي بشكل إلهامات عفوية ، ولا علاقة لها لا بالنضوج الفكري ولا بالتكامل الجسدي ، ولكنها ، برأينا ، مرتبطة تمام الارتباط بالبيئة والوراثة [1] فقد جاء في بحث للدكتور « واكونه » عن الامراض العقلية ان عدداً من الذين كان يشرف على تداويهم ، ذكوراً واناثاً ، كانوا يمتازون بموهبة موسيقية نادرة ، وانه علم فيما بعد أنهم أبناء لأسر موسيقية .

---

١ ــ لما كان سياق البحث يستلزم فهم نظرية الوراثة ، فقد افردنا لها باباً منفصلا .

فالفارق بين هؤلاء الموسيقيين المتخلفين عقلياً وبين كبار عباقرة الموسيقى كائن في حدة الذكاء لا في نوع الموهبة، لان تنمية هذه الميزة يعوزها تركيز التفكير واستخدام الذكاء والمثابرة على العمل الطويل الشاق، والتي بدونها جميعاً لا يمكن للموهوب أن يتعدى كونه آلة حسنة التصميم. فالطفل « جوزيف فارب » الذي ظهرت عبقريته الموسيقيه في السادسة من عمره، كان يعزف في سن الثلاثين بعين الروعة والاتقان اللذين كان يعزف بهما في السادسة، بلا زيادة ولا نقصان. فقد كان في تلك السن المبكرة يصاحب امه على البيانو في اعقد المقطوعات الموسيقية واصعبها اداءً، ويتلاعب بالانغام بلاجهد ولا تكلف، ويضبط النغم على صوت المغني وطبقة بقية الآلات بلا عناء، ويحفظ من المعزوفات عدداً هائلاً، ويضرب على آلته بسهولة عجيبة، غير آبه لموسيقاه ولا مكترث لمواقع أصابعه، وكل ذلك دون أن يخطيء باية وحدة من سلّم المعزوفة.

ولكن على الرغم من كل هذه المقدرة ، كان الصبيُّ متخلفاً عقلياً ، لايدرك القول ولا يحسن اللفظ ، شأنه في ذلك شأن الرياضي الكبير « لويس مونرو » الذي ولد عام ١٨٢٦ في قرية من ضواحي مدينة « تور » في فرنسا والذي كان يعمل في صغره راعياً لقطيع القرية ويقضي وقته في الحسابات الذهنية السريعة . ولما اكتشف موهبته احد مدرسي المدينة ، اخذه اليه ، وكان اذ ذاك في الثامنة من عمره ، وعكف على تعليمه ظناً منه أنه عثر على عبقرية نادرة . ولكن اربع سنوات من الجهد المستمر لم تعط أية نتيجة ايجابية ، وظل الطفل على قدرته الخارقة في حل المسائل الذهنية مهما كانت معقدة دون أن يتعلم حرفاً واحداً ؛ ولما قدِّم الى اكاديمية العلوم في باريس في الرابعة عشرة من عمره ، جاء تقرير لجنة الامتحان مؤيداً موهبة هذا الرياضي الجاهل الفذة .

اما اذا اقترنت العبقرية بالذكاء ، وهو حال العلماء

امثال « فريدريك غوس » و « واطي » و « امبير » الذين ظهرت عبقريتهم بين الثالثة والرابعة من عمرهم . فإن هذه العبقرية تأخذ بالتدرج في مراقي التطور والتقدم المضطرد ويدخل أصحابها في عداد أعلام تاريخ العلوم والفنون .

واذا لم تقترن به ، دون ان يكون هناك تخلف عقلي ، ظهر الفارق جلياً بين تصرفات هذا العبقري اليومية وبين إنتاجه الرائع ، حتى ليكاد يشق على المرء أن يصدّق بان صاحبه هو عين الشخص الذي يتصرف بشكل لا يبعد كثيراً عن الغباوة . وقد دلت المشاهدات على ان الاستعداد الغريب الذي يقارب العبقرية ، كثيراً ما يكون ملازماً ضعفاً في بعض الملكات الاخرى قد يصل الى حد البلاهة خصوصاً لدى الموسيقيين والرياضيين . فولد سميث مثلاً ، مؤلف الكتاب المشهور : « فيكر اوف ووك فيلد » كان يقول عنه الناقد الكبير « هوراس وول بول » أنه أبله ملهم .

وكان يقول عنه أحد كبار الكتّاب من معاصريه : « إنني لا أخال مؤلف هذا الكتاب الاّ صاحبه ، ولكن ثقوا أن تصديق ذلك ليس بالأمر السهل ! » ومثل هذا كان يقال في الشاعر « باربيه » الذي وصفه الناقد « دي هيربربا » أنه شاعر ممتاز ولكن اكثر من عرفهم بلاهة .

اما اذا كان النبوغ يرتكز على أساس ولو يسير من العلم ، فان صاحبه ، بعد ان يكون قد قضى وقتاً ليس بالقصير في الجد لحل مسألة أو مشكلة ، او في البحث عن شكل يعطيه لفكرة علمية أو فنية ، يشعر بنتائجه كشيء خارق يأتيه من عالم خارجي لا علاقة له به ، يتلقفه عقله الواعي منه ويكيّفه حسب مقتضيات ظروفه ثم يخرجه له جاهزاً للتطبيق العملي . اما المنطقة التي تقوم بهذا الدور الباهر العجيب فهي منطقة العقل الباطن في المخ او « اللاشعور » كما ندعوه .

ولن يضيرنا قبل الاسترسال في دراسة تأثير الوراثة والغدد الصم ووظائف العقل الباطن ان نبحث في مجمل شخصية هذا المخلوق الذي ندعوه الانسان والذي ثبت انه لا يملك من أمور نفسه شيئاً أبداً .

الفصل الثاني

تاريخ الظلام

ولو قصد « هوميروس » لأدرك أن خيل بطله وكلاب صيده أحق منه بالمديح والاطراء. اذ لولا سرعة جري جياده وقدرة كلابه لما كان الفارس المجلي ولا الصياد الماهر .

مالبرانش

قد يتوهم الكثير بان الصرخة الاولى للطفل عند ولادته هي ايذان بدء حياته ، ولكن الحقيقة هي أن تقرير وجود الكائن البشري يتم تماماً في اللحظة التي يصطدم فيها الحيوين المنوي بالبويضة المتكاملة لدى الانثى عبر المجاري التناسليّة ، فتنشأ عن هذا الالتقاء والامتزاج خلية حيّة هي الخلية الاولى في المخلوق الجديد والتي تحتوي على عـدد ليس بالقليل من صفات الابوين الماديّة والمعنويّة . ولكن هذه السمات البدنيّة والصفات الخلقيّة لا تكون دائماً تامة المطابقة لما كان عليه الابوان ، لأن بعضاً من الصفات الوراثية لا يظهر إلاّ في خلف الخلف او ابعد منه [1] كما اثبت ذلك القس « مانديل » [2] في تجاربه العديدة

١ ــ وهو معروف في قوانين الوراثة باسم « أتافيسم » او العودة للاصل .

٢ ــ راهب وعالم نباتي نمساوي ولد سنة ١٨٢٢ وتوفي سنة ١٨٤٤ ، شهر ابحاثه القيمة العالم الهولندي « فريس » عام ١٩٠٠ ، بعد ان ظلت مجهولة طوال خمسين عاماً .

على الدجاج ، عندما استولد فراخاً نقيَّة البياض او السواد من دجاجات رماديَّة كان ابوهما اسود وامهما بيضاء .

ففي تمام عملية الاخصاب ، وهي لحظة اندماج الحيوين المنوي بالبويضة ، لايكون قد تقرر وجود الكائن البشري فحسب ، بل يكون كذلك قد تقرر نوعه ، ذكراً كان او انثى ، وتقررت شخصيته وخطوط حياته . اما جهازه العصبي ، وهو الاداة الاولى لإثبات وجوده ، فلا ينشأ الا في اسبوعه الثالث ، ويكتمل نموه في الشهر السابع ويتألف من شبكة معقدة من الاعصاب الدقيقة تصل بين كافة أعضاء الجسم وبين المخ . والمخ لدى الانسان هو مادة بروتوبلازمية كامدة ، تملأ تجاويف الفصين العظميين الناتئين في الرأس ، معقدة التركيب ، شاقة النمو ، هي أشد انسجة الجهاز العصبي حساسية ، واكثرها تطوراً ، واعظمها اختلافاً ، وابلغها تأثراً بافرازات المصانع الصغيرة المنتشرة في الجسد كله والتي ندعوها بالغدد الصم .

وللغدد على انواعها ، صمّ كانت او غير صم ، وجوه مختلفة من النشاط تؤثر تأثيراً فعالاً على مجمل قوى الانسان البدنية والعقلية والروحية . فهي مصانع كيميائية حقيقية تبسط سلطانها على الجسد كله بما تصنع من مواد جوهرية لا غنى للخلايا والاعضاء عنها فى تغذيتها ونشاطها . فالرجل الخصي مثلا ، لا يمكن أن يكون عالماً كبيراً ولا فناناً شهيراً ولا فيلسوفاً عظيماً أبداً ، اما اذا وقع النقيض وكان افراز الخصيتين زائداً عن الحد المعتاد ، فلا يصبح صاحبها ، كما قد يُتوقع ، عالما أو فناناً أو فيلسوفاً ، بل رجلاً عادياً يمتاز بالجرأة والقسوة والضراوة .

فالعقل ، وهو الكيان المعنوي لنتيجة تفاعلات المخ الفيزيا ـ كيمائية ، هو الذي يعكس على الجسد صورة واقع حاله ، وهو الذي يسم ، تبعاً لحالته ، كل تصرفاتنا وأفعالنا وأقوالنا بميسمه الخاص ، حتى أسارير وجوهنا وأفواهنا ، انما تحددها احوال تألفها العضلات ، ولكنها

مستمدةً من حالة العقول . وقسمات الوجه لدى الفرد تصبح ، عن غير وعي منه ، عامرة بشعور كيانه وشهواته وامانيه حتى ليكاد يقرأ فيه محدثه مقدار ذكائه وغبائه ، ورذائله وفضائله ، ومبلغ الصحة أو المرض في عقله ، وما يحتال في اخفائه من قبيح عاداته . ولقد كان الاطباء في تشخيصهم للأمراض ، يعلقون أهمية كبرى على المزاج والطباع ، وكانوا في ذلك على حق ، لأن في وجه كل امرىء صورة عن جسمه وروحه . وعندما اخذت جماعة من الأطباء الأميركيين البارزين ، منذ أكثر من خمسة وعشرين سنة ، في بحث التأثير الذي يحدثه العقل في الجسم ، فاق عدد الشواهد المؤيدة لهذا التأثير كل ما كانوا يتوقعونه ويرتجونه . وكان من جملة أمثلتهم القاطعة ، مرض القرحة المعدية . اذ اثبت الدكتور « هارولد ولف » الذي أشرف على معالجة ٢٠٠ حالة من هذا المرض ، ان مجرد محادثته مع المصابين به بما يثير خواطرهم من ذكرى

زوجة مشاكسة أو تجارة خاسرة او خيبة عاطفية أو مالية ، فان حالة القرحة كانت تبدأ بالتفاقم تحت تأثير حامض الهيدروكلوريك الذي كان سيله يزداد زيادة عظيمة أثناء الحديث .

وما هو ثابت في هذا الاتجاه ثابت أيضاً في عكسه . فالعقل والنفس يتأثران كل التأثر بشؤون غددنا وانسجتنا وأغشيتنا من نقص أو زيادة في الافراز . فتأثر شخصيتنا بامراض الكبد والمعدة والامعاء أمر معروف ، والفتور الذي يعتور نفوسنا في أوجاع الكليتين معروف أيضاً ، واعتلال صحتنا بتأثير توعك أمزجتنا معروف كذلك . ولكن ما لا يعرفه الا القليل هو تأثير الغدد الصم العميق على كافة وظائف العقل والنفس أثناء الحياة[1] .

---

١ ــ يقول العالم « ا . موريسون » في كتابه : « الانسان لايقوم وحده » في فصل « الضوابط والموازين » : ان تلك المواد (ويقصد مفرزات الغدد الصم) تبلغ من القوة الفعالة بحيث ان جزءاً من بليون منها تحدث في الانسان آثاراً بعيدة المدى .

فالغدد الصم نسج بشريّة تبدو على هيئة كتل وأنابيب موزعة على كافة أجزاء الجسم باستثناء الأطراف، وتمتاز عن سواها بافرازاتها الذاتية الكاملة [1] وانصبابها رأساً في الدم او اللنف بدون وساطة اقنية او اوعية معيّنة، وتعزي اليها كافة مظاهر نشاط الملكات والصفات الحكميّة والنفسيّة. فالغدة النخامية [2]، تبعاً لحالتها، هي صاحبة الأثر الاوّل في احداث الحندلة [3] والعملقة [4] والابقاء على الطفالة [5]، كما أنها بتأثيرها على قشرة الكظر [6] تحدث البلوغ المبكر وظهور الطمث وفرط البدانة المصحوب بتغاير الجنس في بعض الاحيان. اما انتظام تعاونها مع

---

١ – بمعنى انها ليست نتيجة تفاعل، وان لا مراحل لتكوينها كالبولة وحمض الكربون.

٢ – هي غدة بحجم حبة الفول تزن ثمانية غرامات تقريباً وتقع على السرج التركي في الجمجمة.

٣ – القصر المفرط.

٤ – الطول المفرط.

٥ – مظاهر الطفولة حتى بعد البلوغ.

٦ – الكظران غدتان تقعان فوق الكليتين.

الغدة الدرقية [1] فانه يكسب صفات الثبات والرزانة والتعقّل . والغدة الدرقيّة بدورها ذات اثر فعال في كثير من صفاتنا النفسية ، فهي ان تضخمت او زاد مفرزها ، أورثت نقص النوم والاضطراب النفساني والنظرة الهائجة المتحولة وفرط التنبه في الجملة العصبية [2] ، اما ان فُقدت ، خصوصاً في الطفولة المبكرة ، فان ذلك يورث البله والقصر وتأخر الكلام والصمم .

وتعمل الغدة الصنوبرية [3] بالاشتراك مع الغدة الصعترية [4] في تعديل النموّ المسرع للغدد التي تهيء افرازاتها الخصائص المميّزة للجنس بدنيّاً ونفسيّاً .

اما جزيرات البانكرياس ، وهي التي تقوم بافراز مادة

---

١ ــ غدة واقعة في مقدمة منبت العنق .

٢ ــ اثبت تشريحيا ان غدة كبار المجرمين الدرقية يزيد حجمها عن الحد المعتاد .

٣ ــ تقع تحت المخ وهي بحجم الصنوبرة

٤ ــ غدة ذات شكل غير منتظم تقع في الجهة الامامية من الصدر وتزن بين اربع وخمس غرامات . وهي تتكون في الشهر الثالث وتتكامل في الشهر التاسع وتضمحل في سن البلوغ .

الانسولين المحتوية على الكبريت والموجة بحرق المواد السكرية ، فان صلتها ببقية الغدد صلة بدنية اكثر منها نفسية وتظهر عوارضها اول ماتظهر بالجسد باشكال مرضية.

فالتاريخ الشخصي المشترك لكل أنواع الكائنات الحية لا يتعدى فترة تطورها في أوساطها او في بيوضها أو في بطون امهاتها ؛ ولكنها عندما تبلغ مرحلة التكوين الكامل ، وهي في الانسان لحظة اطلاقه صرخته الثاغية الاولى ، ينفرد كل كائن بحياته يعيشها كما كتبت له .

ان الجسم البشري يتركب من مجموعة من العظام والعضلات والجلد والشعر يتوقف مظهرها كلها على تغذية الانسجة التي ينظمها تركيب مصل الدم ؛ والمصل هو السائل الذي يحمل كريات الدم الحمراء وعددها من ٢٥ الف بليون الى ٣٠ الف بليون كرية ، وكرياته البيضاء البالغة ٥٠ بليون كرية تقريباً ، والذي يزخر بمواد زلالية واحماض وسكريات ومواد دهنية ومفرزات من كل الغدد

والانسجة ، والذي يحتوى فوق ذلك أجساماً مضادة للجراثيم الضارة بالإضافة إلى المواد الكيميائية والخلايا القادرة على ترميم الأعضاء كلما مسّت الحاجة .

ويسري هذا السائل في الجسم بأسره حاملاً في عبابه الغذاء المناسب لكل نسيج من أنسجته بالقدر اللازم والضغط المطلوب ، وبالسرعة الكافية لمنع تأثره بما يلقى فيه من الفضلات المتخلفة عن الانسجة الحية .

فالانسان كيان قائم أولاً وآخراً على التغذية ومركّب من حركة دائبة بين مواد كيميائية تجري جريانا دائماً بين خلايا الجسم كلها حاملة لها ما يلزمها من طاقة وغذاء لتبني لأعضائنا ومزاجنا كيانها الموقت الرقيق ، لذا كان توقف أمر جهودنا وسلوكنا ونوع أفكارنا على حالة دورتنا الدموية حالة طبيعية جداً في اكثر الحالات .

والجسم بطبيعته وحدة متماسكة غاية في القوة والكمال ، محارب ومدافع من الطراز الاول ، ضنين بانسجام وظائفه ،

غيور على بعضه ، قادر على رأب صدعه ، نفذ الى سره اوّل ما نفذ اعرابي أمّي من الجزيرة العربية قال في حديثه الشريف : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسم ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[1] .

وقد أخفق الكثير في تفسير هذا الحديث العجيب وذهبوا في تعليله مذاهب شتى لاتمت الى الحقيقة الا بالقدر الذي يضفيه عليها إيمانهم المتين ، أما التفسير الصحيح ، فهو ما ذكره العلم الحديث بلسان الجراح الكبير « الكسيس كاريل » :

« ان للجسم وحدته في المرض كما له وحدته في الصحة ، فهو يمرض جميعاً اذا مرض ويصح جميعاً اذا صح ، ولا يمكن ان يقتصر الانحراف على العضو المصاب بمفرده

---

1 – عن أبي هريرة رضي الله عنه رواه احمد ومسلم .

أبداً ، فاذا أصاب الجلد او العضلات او اوعية الدم او العظام أذى ، هيأ الجسم نفسه في الحال لمواجهة الحالة الجديدة ؛ فحالة نزف في موضع ما من الجسم مثلاً تستدعي انقباض جميع اوعية الدم فيه لتحتفظ الشرايين بالضغط الكافي لاستمرار الدورة الدموية . واذا ما انكسرت جارحة من جوارحه وتمزقت العضلات واوعية الدم بفعل الاطراف المسنونة من العظام المصدوعة ، فسرعان مايحيطها الدم بغشاء من الفيبرين [1] ، وتنشط دورته وتتورم الجارحة المصابة وتفيض على العضو الجريح المواد الغذائية اللازمة لتجديد الانسجة ، ويتحول جزء العضل القريب من موطن الكسر الى غضروف يستحيل في ما بعد الى نسيج عظمي جابر » .

اما الحمّى ، فهي ارتفاع موقت في حرارة الجسم الطبيعية

---

١ ــ مادة زلالية موجودة في مصل الدم مهمتها الالتصاق بالجروح لايقاف النزف .

البالغة وسطياً ٣٧ درجة سانتيجراد ، فقد ظل الناس سنوات طويلة يتوهمون انها نتيجة للصراع القائم بين الميكروبات المرضية الدخيلة وبين كريات مصل الدم البيضاء ، ولكن الطب الحديث اثبت خطأ هذا الزعم ولو أنه لم يعط تعليلاً مُرضياً عنه ، فالحرارة ترتفع بصورة آلية في أكثر الحوادث الطارئة نتيجة بلبلة تقع في عصبي التوازن الحروري الكائنين في اسفل قاعدة المخ ، وقد اثبتت التجارب قدرتها على قتل عدد من الفيروسات والجراثيم حتى أن الأطباء يعمدون احياناً ، في عهد البنسلين والستربتوميسين ، الى رفع حرارة الجسم اصطناعياً بغية القضاء على الطفيليات المرضية المجهرية .

والمبدأ بحد ذاته معروف منذ القديم ، حتى ان الملك الفرنسي لويس الحادي عشر كان يتمنى أن يصاب بالبرداء لعل حرارتها تشفيه من طفح جلدي مزمن كان يشكو

منه ، اما الجديد الذي يجب أن يعرف ، هو ان الحرارة ليست بصورة حتمية ظاهرة مرَضية ، بل عنصر ملازم لكافة أعمال الاصلاح الذاتي في الجسم البشري ، وهو ما قصده النبي العظيم من أن سائر الاعضاء تتداعى للعضو المصاب بالسهر والحمى .

وهذا الاسلوب المادي في الترميم والبناء ، وهو اسلوب تجديد الشيء نفسه بنفسه ، يشبه الى حد بعيد طريقة تربية الملكات العقلية والمزايا النفسية التي تُبنى بجهد ذاتها . فالارادة مثلاً لا تقوى الا برياضة نفسها ، والذاكرة لا تنمو الا بكثرة استعمالها ، والذكاء لا يصاغ الا بالتعود على التفكير المنطقي .

ومظاهر الجلد ، عادة ، مرآة تنعكس عليها حالة الاجهزة والاغشية والغدد كما تنعكس عليها حالة العقل والنفس والقلب ، واذا كان انتظام التغذية الدموية

وانسجام الحركة الكيميائية واتساق نشاط الانسجة والغدد من عوامل دوام العافية ، فان اتزان العواطف وراحة الضمير وصلاح البال عوامل هى لاتقل عنها أهمية في عدم اعتلال هذه العافية .

فاذا الف المرء مثلاً عواطف الحسد والبغض زمناً ، اصبح في قدرة هذه العواطف أن تحدث تغيّرات عضوية وعللاً مزمنة حقيقية في جسده . فالموت المبكر أمر شائع لدى رجال الأعمال الذين يجهلون كيف يكافحون همومهم ، والتهابات الكلى والمثانة لدى كثير من الرجال والنساء مرجعها اضطرابات في النفس قديمة ، واقتحام جراثيم المعدة والامعاء الدورة الدموية نتيجة اضطرابات عصبية وعضوية مردها ذبذبات الحياة الحديثة ، حال يعرفها الاطباء تماماً .

وقد أدركت اكثر الديانات المعروفة هذه الحقائق

الراهنة ، فجعلت من بعض تعاليمها العقيدية رياضة فكريّة وجسدية . حتى أن الدين الاسلامي ، بقرآنه وحديثه وسننه واجماعه ، لم يهدف إلاّ لعزة الفرد وسلامته في عقله وبدنه وآله ومجتمعه [1] .

---

١ ـ في الفصول المقبلة شرح واف لهذه الفكرة .

الفصل الثالث

القصة العجيبة

من الغباء ان نسائل الشجرة لماذا تورق ولماذا تعيد واين تذهب أوراقها الذابلة كل عام ! ان الفرد مظهر زمني للنوع الخالد ، تماماً كالورقة ، تولد وتموت ، ويبقى الجذع من بعدها حياً ليهب الحياة .

شوبنهور

تحدثنا في الفصل السابق عن كيفية انتقال الحياة من السلف الى الخلف وتجاوزنا متعمدين كنه هذه الشعلة الازلية العجيبة التي استمر اشعاعها على مر الدهور بالرغم من عاديات الزمن وكوارث العصور خلال ملايين من السنين لنفرد لها ولنشأتها فصلاً خاصاً نسعى به لاستشفاف بعض ما نستطيع من خفاياها .

لقد شقت الحياة طريقها في هذا الكون تارة باللين وتارة بالعنف بين شتى أنواع الصعاب والعقبات ، ومضت قدماً قوية مظفّرة حيث توقف او تراجع او اندثر كل عصر من عصور التاريخ الجيولوجي . انها تمكنت ، بمختلف انواعها وأشكالها ، من الجرثوم المجهري الدقيق الى اضخم الحيوانات والنباتات ، من أن تتغلّب على كل الظروف المتغايرة ، للماء والأرض والهواء ، على ما هي عليه من

الضعف وتفاهة الجرم بالنسبة للطبيعة وثوراتها .

انها النفحة القوية الخفية المهيمنة على العناصر الجامدة ترغمها في ظروف معينة وحدود ضيقة [1] على حل تركيباتها والاتحاد مجدداً على أساس صلات غيرها ، وتمنحها القدرة على تكرار نفسها أجيالاً لا عدّ لها ولا حد ، وانها باقية بقاء مشيئة الخالق الذي جعلها أداة لتنفيذ ارادته وخدمة قصده .

اما بدايتها ، فانها لغز يقف العلماء حيارى امام حلقة حلقه الأخيرة ، لانهم ، بوصفهم علماء ، لا يستطيعون الاقرار بالمعجزات ، وانهم بوصفهم مفكرين ، لايستطيعون القطع برأي نهائي لعجيب هذه البداية البعيدة .

انهم بنتيجة بحوثهم يقولون بتطور معظم الكائنات الحية من أصل خلية مكروسكوبية فريدة لها القدرة على

---

١ – وهي شدة البرودة والحرارة لانها تقضيان على ظروف المادة التي تتوقف عليها الحياة .

التكاثر والمواءمة على شتى اشكال مظاهر الحياة ، ولكن البعض منهم يعتقد بان الفضل في وجود هذه الخلية يعود الى مصادفة متوافقة في الظرف والمادة [1] ، بينما يرى البعض الآخر بان النظام الماثل في كل جوانب الحياة الفسيحة ، من البداية الى النهاية ، يوجه التفكير نحو الاعتقاد بتعدد انواع هذه الخلايا التي سوف تصبح نباتاً أو سمكة او طائراً او انساناً ، بدون تبديل أو تعديل أو انتقال ، مهما طال الزمن .

فاذا أخذنا بأي واحد من الافتراضات وعدنا الى القول السائد بان الحياة قد ظهرت من بعض الكواكب في شكل جرثومة انسلّت من الفضاء دون ان يصيبها تلف ، واستقرت على الأرض بعد ان اجتازت درجات من الحرارة المتفاوتة بين الصفر المطلق الى آلاف الدرجات

---

١ ــ يقصد في هذا التوافق اتحاد مواد كيميائية معينة مع الماء في وقت وظروف حرورية ملائمة .

المئوية ، وجب علينا أن نستخلص من ذلك بان هذه الجرثومة وجدت لنفسها المكان الملائم لاستمرار حياتها ، وهو قاع المحيط على الاغلب ، حيث الحرارة ثابتة نسبياً وحيث أدى اتفاق مدهش في الظروف الى بداية توالدها وتسلسل حياتها وتطور أجزائها في الماء والارض والاجواء باتجاه واحد غير قابل للنقض .

والسؤال هنا هو معرفة ما اذا كنا انت وانا واشباهنا مجرد توافق عرضي للمادة والزمن ، ام أننا خطرنا على هذه الأرض بوصفنا اطفالاً لمنبع الحياة الكوني ، أسياداً بين الحيوانات وذوي تكوينات معقّدة التركيب بشكل لا يوصف ، واصحاب عقول أعدت عن قصد لتلقّي اللمحة من القدرة الازلية والنفحة الالهية التي نسميها الروح .

ان الخلية الفريدة البروتوبلازمية [1] كائن حي يتمتع بالقدرة على توزيع الحياة ومطابقة كل مخلوق لبيئته حيثما

---

١ ــ البروتوبلازم : مادة زلالية حية تتكون منها خلية الاجسام النباتية والحيوانية .

تتوفر شروط الحياة ، من قاع المحيطات الى أعالي السماوات ، وتكوين شخصيته ومزاياه الفردية حيثما كان ، مكسبة إياه مزيداً من الملاءمة والمواءمة على حساب مرونتها وقابليتها للتغيّر وعجزها التام عن العودة الى الوراء مهما كان الامر .

وهنا يمكن ان نتساءل عما اذا كان ثمة فهم او ادراك لهذه الخلية المدهشة التي استخدمت في البدء نور الشمس في حل مركّبات كيميائيّة لاصطناع غذاء لها ولأخواتها ، والتي جعلت من اتحادها الوثيق في ما بينها وحدة قادرة على تأدية المهمات المختلفة الموكولة اليها على الوجه الاكمل .

انه من الواضح ، سواء اعتقدنا بوجود هذا الفهم والادراك لديها او عزونا نشاطها الى غريزتها الخلقية ، ان مجموعاتها تنسجم تمام الانسجام مع احتياجات الكائن الحي التي هي جزء منه ، فتكيّف نفسها من حيث الشكل والطبيعة للقيام بالوظيفة الملقاة على عاتقها بلا تردد

ولا تباطؤ ، فيقوم بعضها ليبني العظام ، ويذهب بعضها ليكسوها لحماً ، ويعمل بعضها في مد الاقنية وتنظيم شبكة الاعصاب بينما يجهد بعضها في غزل الشعر ونسج الجلد ، كل ذلك بلا تداخل ولا تشابك ولا تجاوز ، اذ لم نصادف قط ان قامت مجموعة بغير العمل المخصص لها او خارج المجالات المحددة لمزاولته . إنها تبدو وكانها مدفوعة بفعل ارادة خفيّة سحريّة لتقوم بالعمل الصحيح اللازم في المكان المطلوب والوقت الملائم ، كل ذلك بهمة لا يعتورها الوهن ونشاط لا يشوبه الفتور .

فاعتقد في سرها ما يرتاح اليه عقلك ، وحاول أن تدرك من نشأتها ما أعجزني ادراكه ، ولكن حاذر ان تعزو وجودها وحياتها وتطورها الى المصادفة المحضة ، لأنك ان فعلت ، أشككت الناس بسلامة تفكيرك واعلنت عن جهل لا يليق بمن كان بمثل معرفتك وايمانك ، اذ أنه من المحال حسابيّاً كما تعلم أن تتوافر كل شروط الحياة

الجوهرية على سطح الأرض بمجرد المصادفة . فحجم الكرة الأرضيّة وحده ، لو أنه كان أكبر او أصغر مما هو عليه ؛ لاختلفت ابعادها عن الشمس ولم تمكن الحياة عليها . ولو أن طبقة الهواء فيها كانت اكثر ارتفاعاً او أشد كثافة ، لأحرقت ملايين الشهب المندثرة كل يوم في الفضاء الخارجي كل ما هو قابل للاحتراق على سطحها ولما اقتصر نور الشمس في اختراقها على مقدار التأثير الكيميائي اللازم لحياة النبات وقتل الجراثيم وانتاج الفيتامينات دون الضرر بالانسان . ولو أن قشرة الأرض كانت أغلظ او أدق مما هي عليه ، لاختلفت درجات امتصاص ثاني أوكسيد الكربون والاوكسجين واستحال تكوين النبات الذي يعتبر المصنع الاساسي المسخر لانتاج أوّل عناصر الحياة واضر شروطها ، وهو مادة الاوكسجين .

فاذا رأيت أن هذا التوازن والكمال الذي لم يطرأ عليه تعديل أو تغيير منذ ملايين الملايين من السنين ،

وان هذا النظام الدقيق البديع الذي يسير عليه الكون باجمعه منذ الازل والى أبد الآبدين ، هو نتيجة لمصادفة عرضية ، حقّ لك ان تنحاز الى صفوف من ترى نفسك جديراً بالانضواء تحت لوائهم ؛ وان كان لا ، وهو الاغلب ، فتعال معي نقف اجلالاً لهذه الروعه الاخاذة ونطرق خاشعين أمام عظمة ما ابتدعته قدرة أحكم الحاكمين .

الفصل الرابع

شخصياتنا

وقد نقشت على هامة القصر المنيف هذه العبارة الغريبة : انني لست ملكا لاحد والكل يملكني . لقد كنت فيه قبل ان تدخله ، وستظل فيه بعد ان تبرحه .

ديدرو

ان لكل مخلوق حي شخصية ذاتية مستقلة تبنيها وتسمها بطابعها المستقل الخاص عوامل اصلية ثلاثة هي الوراثة والتصالب [1] والبيئة .

اما الوراثة فسنة طبيعية قاهرة ، تخضع لقوانينها عموم الكائنات الحية على انواعها ، ويتم بموجب قواعدها انتقال معظم صفات السلف الى الخلف [2] . ولا يقتصر توارث هذه الصفات على نوع معيّن فيها ، بل يشمل كافة ما يطلق عليه اسم صفة أو حالة او ميزة ، حكمية [3] كانت أو

---

١ ــ التزاوج من بيئات مختلفة .

٢ ــ اما العلماء الروس من اتباع « ميتشورين » فانهم يعرفون الوراثة على انها ميزة الكائن الحي في الاصرار على الحصول على شروط معينة تلائم حياته وتطوره ، وانها نتيجة تكاثف المؤثرات الخارجية الطارئة على سلالات اسلافه . (من محاضرات العالم « لسنكو » عميد اكاديمية العلوم النباتية في الاتحاد السوفييتي ، في كتاب : الوضع الراهن للعلوم البيولوجية في الجمهوريات الاتحادية الروسية) .

٣ ــ تعبير مصطلح عليه ويعني شكلي مادي .

نفسية ، قديمة كانت أو مكتسبة [1] ، ويتم انتقالها بحكم واحد من نواميسها الاربع التالية [2] :

أولا : الوراثة المباشرة [3] وهي تلقي الخلف صفات ابويه المشتركة

ثانيا . الوراثة الراجحة [4] وهي التأثر بصفات واحد من الابوين

ثالثا : الوراثة الراجعة [5] وهي تلقي صفات يعود منشؤها الى الاجداد واسلافهم ولو لم تكن ظاهرة في السلف او سلف السلف المباشر

رابعا : الوراثة المتوافقة [6] وهي التأثر بصفات السلف في عين السن او الظرف اللذين ظهرا فيه لديه ، كالمرض

---

١ ــ عند توفر بعض شروط معينة ذكرت في الصفحات المقبلة .

٢ ــ واضع هذه النظرية هو العالم البريطاني تشارلز روبرت داروين .

٣ ــ ويطبق على هذه الوراثة في كتب العلم الفرنسية اسم « هيريديته ديركت »

٤ ــ « « « « « « هيريديته بريبوندرانت »

٥ ــ « « « « « « هيريديته دو روتور »

٦ ــ « « « « « « هيريديته هوموكرونيك »

او الموت في سن واحدة للأب والابن .

وقد استخلص العالمان « نودان »[1] و « مانربل »[2] من هذه النواميس ومن تجاربهما واختباراتهما العديدة ثلاثة قوانين تعتبر دعامة قوية ، ولو أنها غير مطلقة ، في سنن الوراثة[3] ، فقد اثبتا ان تزاوج كائنين مختلفين يأتي بالنتائج التالية :

ا — يتشابه مجموع الانتاج الأول في ما بينه .

ب — يبدأ التشابه مع الاجداد اعتباراً من الجيل الثاني .

ج — يتتبع التشابه في الجيل الثاني وما يليه نظاماً معيناً .

فاذا زاوجنا أرنباً أبيض خالص النسب بآخر أسود خالصه ، جاء الصغار شهباً كلها ، واذا تزاوجت هذه

---

١ — شارل نودان : عالم نباتي فرنسي ولد عام ١٨١٥ وتوفي عام ١٨٩٩

٢ — ورد ذكره سابقاً

٣ — ان كل هذه السنن والنواميس والقوانين ، على دقتها ، ادرجت للاستئناس ، اذ ان علم الوراثة الحديث اثبت في النطفة او البيوض او البذور ، وجود عصيات بشكل حلقات متسلسلة في منتهى الصغر ، دعاها « الجينات » او الوحدات الوراثية التي تحمل للخلف صفات السلف .

الشهب ، جاءت صغارها بيضاً وسوداً وشهباً ، بنسبة النصف للون الراجح في الجدّين ، والربع لكل من اللونين الآخرين . اما اذا زاوجنا دجاجة اندلسية بيضاء بديك اندلسي أسود خرجت الفراخ برشاً . واذا ما تزاوجت هذه فيما بينها ، كان لون ريش سلالتها أبيض او أبرش واسود كما في الارانب ولكن بنسبة النصف للون الابرش وهو لون السلالة الاولى ، والربع لكل من اللونين الأصليين ، بعكس ما حصل في الارنب ، اذ ان نسبة النصف كانت لأحد اللونين الأصليين ، بينما أنها هنا للون السلالة الاولى .

وتتبع الوراثة في الانسان عين النظام المشاهد في المثال الثاني ، يؤيد ذلك ما حدث عام ١٧٧٩ عندما رست احدى سفن المحيط الهادي في جزيرة غير مأهولة اسمها « بيتيارين » واستوطنها بحارتها البيض مع بعض الزنجيات البولينيزيات اللواتي كنّ على ظهر السفينة . ولما اصبح

عد هؤلاء حوالي الثمانمائة بعد مضي عدد من السنوات. لوحظ ان ما يقارب النصف كان خلاسياً[1] والنصف الآخر بين أبيض وأسود.

وبديهي أن لايكون الفارق مثل هذا الوضوح الذي هو عليه في الامثلة المتقدمة اذا كان التباين بين الابوين طفيفاً كتزاوج أرنب اسود بآخر اشهب، اذ ان النسل يكون عندئذ متدرج لونه بين الاسود والاشهب، وهو ما يدعى بوراثة السلسلة المتتابعة.

واذا ما حدث ان بقي النسل محافظاً على اللون الاشهب في اخلاف السلالة الشهباء الاولى الناتجة عن تزاوج الابيض والاسود بدون ان يحصل ما يعيد صفات احد الجدين الاصليين، تطلق عندئذ على اللون الاشهب صفة السيادة القطعية في النسل. وتكون السيادة متنقلة عندما تتخذ السلالة في بدء حياتها صفات أحد الابوين

---

١ ـ الخلاسي هو ولد الزوجين المختلفين في لون البشرة

ثم تستبدلها في صدر حياتها بصفات الآخر [1].

ومن أنواع الوراثة النادرة، نوع الوراثة بالالتقاط [2] وهو تلقي صفات غريبة، ليست للأم ولا للأب ولا لأحد من الاجداد ، بل لزوج سابق للأم ، كإنجاب ولد في جسده بقاع سوداء ، ابواه ابيضان تماماً ولكن كان سبق للأم ان تزوجت باسود قبل سنوات . وقد أورد « داروين » مثالاً في الحيوان ، على هذا النوع، جاء فيه أن فرساً لُقحت بحمار الوحش فوضعت منه بغلاً . ولما لقحت في مرتين متتابعتين بحصان من نوعها ، جاءت الامهار تحمل في أعناقها وأرجلها خطوطاً تشبه خطوط الملقِّح السابق . وقد أُوِّلت هذه الوراثة ببقاء بعض البويضات الملقحة في المبيض أثناء التزاوج الاوّل ، او بعدم توفر الشروط الملائمة لنمو تلك البويضات في حينه او باكتساب الأم

---

١ ــ وهو كثير المشاهدة لدى انواع الحمام ويعرفه المشتغلون بتربيتها

٢ ــ معروف علميا باسم « تيليغوني »

لبعض صفات جنينها أثناء الحمل وظهور هذه الصفات في المشيمة الجديدة .

ولا بد من الاشارة هنا الى الاثر الكبير الذي تحدثه البيئة ، وفي طليعتها درجة الحرارة ، في تبديل التراث المنتقل ، لأن مبادلات الجسد الحيوية واعماله الوظيفية تظل على ما هي عليه طالما هي في البيئة التي تعودتها ، فاذا ماحصل تغير في هذه البيئة ، اختلف التبادل الحيوي فاحدث تبدلاً في الشكل . والبريطانيون الذين قضوا سنوات طويلة في الهند او في افريقيا خير دليل على هذا الاثر [1] .

اما توارث الصفات المكتسبة بعد الولادة ، من خلقية أو جسدية أو مرضية ، فان العلماء لم يستطيعوا القطع حتى الآن برأي اجماعي حول هذا الموضوع رغم وفرة

---

١ ــ اذ ان كثيرا مايعودون الى وطنهم الاول وكأنهم مهاجرون اليه ، يحملون من حيث كانوا اكثر صفات اصحاب البلاد

الأمثلة المؤيدة لتوارث هذه الصفات في مملكة الحيوان [1] والنبات وعدم خلو الجنس البشري من بعضها ، كثبوت اصابة اثني عشر شخص من اسرة عدد أعضائها اربعون ، بالورم الوعائي الذي اكتسبه مؤسس الأسرة بركوبه الدائم للخيول [2] ، فالبعض من هؤلاء العلماء لا يزال ينفي هذه النظرية نفياً باتاً مستنداً الى مثال الختان الذي يزاوله الاسرائيليون والمسلمون منذ آلاف السنين دون ان يفضي في الذراري المتعاقبة الى اي تبديل في شكل القلفة .

ان وجاهة هذا المثال بالاضافة الى ما يعرفه الطب من ان التشويهات والجدوع لا تنتقل الى السلالات الا اذا سبق وقوعها داخل الرحم ، تدعونا لأن نسعى لتحديد

---

١ ـ كالقدرة على اكتشاف الاثر والبحث عن الطريدة عند الكلاب وسرعة العدو عند الخيول .

٢ ـ العائلة المذكورة بلجيكية وتدعى عائلة «دريو» وقد أورد هذا المثل الدكتور «بارو»

القاعدة التي نرى أنه يتم بموجبها انتقال الصفات المكتسبة لدى الانسان ، وتتلخص ، باعتقادنا ، في توفر واحد من الشرطين التاليين :

أولاً : ان يتم اكتساب الصفة داخل الاحشاء اثناء التكوين [1] .

ثانياً : ان يحصل الاكتساب بعد الولادة بالتفاعل الذاتي وبدون وساطة خارجية [2] .

اما الصفات النفسية والخلقية ، اذا كانت مكتسبة ، فانها لا تنتقل بالوراثة إلاّ اذا مارسها الانسان طويلاً وتمكنت منه واصبحت بالنسبة اليه بحكم الصفات الموروثة الاصلية [3] . واذا ما اصبحت كذلك ، فانها تنتقل للخلف بموجب واحد من القواعد المندلية مع شواذها .

---

١ ــ المقصود هنا انتقال الصفات البدنية من شكلية ومرضية وغيرها

٢ ــ وهو مايفسر عدم انتقال شكل القلفة بعد الختان بالوراثة

٣ ــ كممارسة التقى والصدق والشجاعة حتى تصبح بعمق الصفة الوراثية

وفي ذلك تفسير لشواهد كثيرة وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف [٢] ، واخرى كثيرة نصادفها في انفسنا وبين ظهرانينا كل يوم ، حتى أننا أصبحنا نكاد لا نستغرب ان ينجب التقي فاجراً والصالح مجرماً والعاقل جاهلاً ، ونؤمن بالمثل الذي اشاعته القافية من ان النجيب لا ينجب واذا انجب أعجب ، بينما أن كل ذلك هو شذوذ القاعدة العامة . فالموسيقار الكبير « باخ » كان ابوه « جان امبرواز » موسيقياً رسمياً في بلاط « ايزناخ »

---

١ ـ في سورة نوح ان نوحاً عليه السلام دعا ربه لينقذ ولده زاعماً انه من اهله فاجيب بانه ليس من اهله وانه عمل غير صالح

وفي سورة الكهف ان الخضر وموسى عليهما السلام استطعما في مدينة انطاكية فابى اهلها ان يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض فاقامه الخضر عليه السلام ليحفظ كنزاً كان تحته لولدين في المدينة كان ابوهما صالحاً . وفي التفسير ان هذا الاب الصالح هو الجد السابع لهذين الولدين من ناحية الام وان تشابه صلاحهما بصلاح ابيهما جعلهما جديرين بالكنز الذي تضارب القول في ان يكون صفائح من ذهب او لوحات من اصول الحكمة .

وفي سورة التغابن ان : يا ايها الذين آمنوا ان من ازواجكم واولادكم عدواً لكم . وقد انفرد الشربيني في تفسيره عن تفسير الطبري عن ابن عباس ان سبب نزول هذه الآية هو شكوى عوف بن مالك الاشجعي الى النبي صلى الله عليه وسلم من جفاء اهله وولده

٢ ـ كحديث : خبيث الرجل الطيب في منيه ، رواه بن ماجة

وحديث : تخيروا لنطفكم فان العرق دساس ، رواه الترمذي

وجده « جان كريستوف » ضارب الارغن في عين البلاط ، وسلفه الثالث « هنري » ضارب الارغن الدائم في كنيسة « ارنشتادت » وسلفه الرابع « جان » ضارب الارغن في كنيسة « ارفورت » وسلفه الخامس « هانس » موسيقياً رسمياً في هيكل « دوق غوتا » . اما السلف الموسيقي الاوّل ، فقد كان يدعى « ويت باخ » ، وهو خباز ونجار له بعض الميول الموسيقية والغنائية ، فأورث هذه الصفة الى سلالته التي اجتمع منها في احدى الحفلات عام ١٧٥٠ ، مئة وعشرون موسيقياً كلهم من عائلة باخ .

وكذلك كان ايضاً اجداد العالم الرياضي السويسري الكبير « برنوبي » الذي انجبت عائلته اربعة عشر جيلاً من العلماء خلال قرنين . ولا يقل اسلاف الرسّام الايطالي الكبير « رفائيل » شهرة عن هؤلاء ، فقد كان ثلاثة منهم من أشهر رسامي عصرهم .

ولكن توارث هذه الميزات وبقية الصفات الحكمية

والخلقية ، ما كان منها حسناً وما كان سيئاً ، فانه يزول بعين النواميس التي انتقل بها الى الخلف [1] وعلى نفس النهج الذي تضمنته القوانين « المندلية » [2] . فالإرادة

---

١ ــ يرى العلماء الروس ان ميزة التوالد تعني حتما توالد الشبه وانها شاملة لكافة الكائنات الحية وان اختلاف البيئة يورث صفات جديدة تختزنها السلالات لمواجهة ظروف حياتها الحديثة

٢ ــ اما العلماء الروس من اعضاء الحزب الشيوعي واتباع العالم النباتي ميتشورين فانهم يسفهون جملة اعمال ماندیل ومورغان ووايسمن ويؤكدون انتقال الصفات المكتسبة في النبات ، ويفرقون بين النظريات العلمية الخارجية التي يصفونها بالبرجوازية الخليقة بالاهمال والرد وبين نظريات علمائهم الواقعية الصحيحة الجديرة بالاهتمام والاتباع (من محاضرة السيد تشيكيمينيف الوزير المعاون لقرى السوفكوز في الصفحة ٢٥٥ من مجموعة ضبوط دورة اكاديمية لينين باللغة الفرنسية) ويتهمون المشتغلين من زملائهم السوفييت بعلم الوراثة النباتية على اسس مندلية بالرجعية والعمل ضد الشعب ومصلحة الزراعة الاشتراكية ويروجون بان دراساتهم وتجاربهم المخبرية تضر ضرراً بالغاً في التربية الفكر به والعقيدة للنشء الحديث وان مصيرهم مع كل من يحاول معاندة تيار النظرية الميتشورينية الزوال حتما (من محاضرة السيد ميتين ، عضو اكاديمية لينين ، في الصفحة ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥١ ، ٢٥٣ من مجموعة ضبوط دورة اكاديمية لينين) ثم يهيبون باكاديمية العلوم السوفياتية ان تدفع بمؤسساتها للتقيد بالقواعد الماركسية ــ الانجلية ــ اللينينية ــ الستالينية بدلا من تشجيعها على المضي في اتجاهاتها الفوضوية بدراسة نظريات الغربيين العقيمة . (من محاضرة السيد ديتروييف مدير برنامج اقتصاد غوسيلان الريفي في الاتحاد السوفياتي اثناء انعقاد دورة اكاديمية لينين)

الشخصية في الانسان ، هذه الهبة الرائعة ، هى الاصل والسر في تسليم السلالات مشعل نهوض الامم وارتقائها ، وهى السبب والعلة في تدهورها واندثارها[1] .

١ ــ لان اهمال رياضة الارادة يؤدي الى ضعفها وبالتالي الى اضمحلال الصفات المنتقلة الى السلالة .

الفصل الخامس

العقل الباطن

لقد صرفت ثلاثين عاماً في اعداد «فاوست»،
اما السبب في ذلك فهو انني كنت أسعى لأن
استولد بقوة الارادة ما تهبه الطبيعة عادة
بصورة عفوية .

غوته

ان شخصيتنا المبنيّة من عوامل الوراثة والتصالب والبيئة ، تشكل وحدة اجمالية لها ولاشك محاسنها ومساوئها الاصلية ، ولكنها ، على استقلالها ، عشواء في طريقها ، سهل تردّيها في مهاوي الحطّة والرذيلة إن لم تأخذ الارادة بيدها لترقى بها في معارج الاخلاق والفضيلة . ولكن الطبيعة العالمة بوعورة تلك المراقي وصعوبة مسالكها ،لم تهملها ولم تدعها لشأنها بل امدتها بالعامل الكفؤ الفعال الذي يملك عنصر المساعدة الجدية ، وهو ما ندعوه بالعقل الباطن .

وقد عرّفه البعض من علماء النفس [1] بانه العقل القديم الذي يعمل عن غير وعي منا ويسيطر على كثير من تصرفاتنا ويجري في الافصاح عن مشاعرنا ، على اساليب صبيانية بدائية .

---

١ ـ امثال اتكنسون وده بودوين وفرويد

اما البعض الآخر، امثال الدكتور « سرج فورونوف » ، فانه يعين تشريحياً موقعه من المخ [1] ، ويفسر عمله بانه مظهر لنشاط حجيرات مادته العاملة خارج نطاق العقل الواعي وتأثيره .

ولكن اختلاف التعاريف لا يؤثر في جوهر الناحية المهمة في موضوع دراستنا وهو امكان استخدام هذه الطاقة استخداماً يسهل ممارسة الصفات المؤدية الى رقي شخصيتنا فالعقل الباطن اداة طيّعة رائعة تؤدي لصاحبها من الخدمات ما لا يخطر له على بال ، على أن يحسن استعمالها ولا يعرقل سير انتاجها ، لأن عملها الوئيد الدقيق يتطلب سكوناً مطلقاً في الجوارح والاعصاب وهو مالا يتيسّر الا في النوم ، او استغراقاً تاماً فيما يشغل الذهن من مسائل وعلوم .

---

١ ــ يمكن للمتتبعين لهذه الدراسة ان يراجعوا كتاب الدكتور سرج فورونوف : وظيفة العقل الباطن في الانتاج العلمي صفحة ٨٥ و ٨٦ و ٨٧

ويعمل هذا العقل خارج مجالات الحس والوعي والجهد المادي والفكري بتأثير الايحاء المباشر المعروف بالاستهواء، او الايحاء غير المباشر الذي يتكفل به العقل الواعي بانشغاله انشغالاً تاماً بما يبحثه .

فالايحاء المباشر أو الاستهواء هو التلقين والتكرار بالذات او بالواسطة [1] لتسهيل عمل الارادة في الاغراء على إتيان ما يصعب على المرء أن يقوم به ، او الامتناع عما يكره أن يتخلى عنه ، أو تيسير حصوله على ما يعسر بلوغه [2] ، او تسهيل مهمة عقله الواعي في حل المعضلات النفسية والعلمية .

اما الايحاء غير المباشر ونتائج تأثيره العجيبة في العقل

---

١ ـ لذات النفس او للغير

٢ ـ وهذا النوع ينفع في الشفاء من امراض عديدة كما ينفع في التخلص من صفات خلقية ذميمة او قيام بواجبات تبدو عسيرة ومستحيلة . وطريقتها الاسترخاء التام ثم تكرار ما يود المرء الحصول عليه عشرين او ثلاثين مرة ، واعادة ذلك على فترات متقاربة .

الباطن ، فامر خليق بان نتوقف عنده لنستجلي غوامضه علّنا ندركه فننتفع منه في عقولنا وأعمالنا ، لأنه يعتبر في هذه الحالة قدرة خلاقة تمد صاحبها بإلهامات علوية تأتيه وكأنها صادرة عن قوة خارقة غريبة عنه ، يتحدث عنها « شوبنهور »[1] في نفسه فيقول « لست انا الذي وضع اسس فلسفتي . لقد شعرت بها تصاغ في عقلي بدون وساطتي وفي ظروف لم يكن فكري مشتغلاً بها ولا ارادتي موجهة نحوها ، وكان كل دوري فيها مقتصراً على تسجيل الخواطر الغريبة الواردة » .

ولكن هذه النتائج المذهلة تكون مقرونة في أكثر الاحيان بالجهد والعمل الارادي الموجه ، خصوصاً لدى العلماء الذين يقضون وقتاً طويلاً في البحث والدرس حتى اذا اعجزهم امرهم ويئسوا منه ، برز لهم الحل الموافق من اعماق افكارهم ، فتلقفوه ثم انكبوا على دراساتهم وابحاثهم

---

١ ـ ارتور شوبنهور : فيلسوف الماني ولد في دانتريغ عام ١٧٨٨ وتوفي عام ١٨٦٠

يجددونها على ضوئه . وقد بحث « غوته »[1] هذا التفاعل في رسالة لصديقه فون هامبولد قال فيها : « ان المران والدراسة والتأمل والنجاح والاخفاق والتشجيع والمقاومة، والتفكير في كل ذلك معاً، يبعث فينا حيويّة لاشعورية تشكل باتحادها مع عقولنا الواعية قوة خارقة تدهش العالم.

وقد جاء عن لسان « والترسكوت »[2] انه كثيراً ما اضطر للتوقف ليلاً عن انجاز عمل ادبي كان يقوم به لعجزه عن العثور على الفكرة الموافقة او المقطع الملائم، ولما تركه ونام كانت الفكرة او المقطع بانتظاره في الصباح.

ومثل ذلك كان يقع « لمبشليه »[3] الذي تعوّد ان يلقي نظرة عابرة على وثائقه قبل ان يذهب إلى سريره،

---

١ ـ وولفغانغ غوته : شاعر وكاتب وعالم وفيلسوف المانى ولد في فرانكفورت عام ١٧٤٩ وتوفي عام ١٨٣٢ .

٢ ـ كاتب قصصي اسكتلندي ولد في ادنبورغ عام ١٧٧١ وتوفي عام ١٨٣٢ . ن اشهر مؤلفاته « ايفانويه » .

٣ ـ جول ميشليه : مؤرخ فرنسي ولد في باريس عام ١٧٩٨ ، وتوفي عام ١٨٧٤

فيستفيق في اليوم الثاني وأكثر اجوبة تساؤلاته حاضرة في ذهنه .

ويقول « كوندوروسيه »[1] انه كثيراً ما صرف عبثاً ساعات طويلة في السعي لحل مسائل رياضية معقدة ، ولكنه عندما كان يضطر للاستراحة والنوم ، كانت الحلول الصحيحة تأتيه فى الحلم .

ويرى « كولريدج »[2] انه بينما كان في احدى الامسيات مضطجعاً في فراشه يقرأ كتاباً أدبياً ، اخذته اغفاءة قصيرة شعر أثناءها وكأنه ينظم قصيدة طويلة تقع في ما يقرب الثلاثمائة بيت من الشعر . فاستفاق من فوره واخذ بكتابة هذه الابيات حتى اذا بلغ عددها الخمسين دخل عليه زائر شغله بعض الوقت . ولما غادره الزائر

---

١ ــ انطوان نقولا ده كوندروسيه : فيلسوف ورياضي فرنسي حكم بالاعدام اثناء الثورة الفرنسية وانتحر في سجنه عام ١٧٩٤ .

٢ ــ واسمه صموئيل تيلور : شاعر انجليزي كان من اشهر محدثي عصره ، ولد عام ١٧٧٢ وتوفي عام ١٨٣٤

واراد الشاعر ان يتابع تدوين القصيدة ، تلاشت ابياتها ولم يعد في ذهنه منها الاّ صور مبعثرة .

وقد وضع الموسيقار « تارتيني »[1] اثناء نومه مقطوعة موسيقية من نوع «السّونات» اسماها «الشّيطان» تعتبر حتى الآن مفخرة موسيقية .

ولكن هؤلاء جميعاً ماكانوا ليحصلوا على مثل هذه المؤازرة القيمة الفعالة من عقلهم الباطن لولا انهم عملوا جاهدين صادقين[2] في مجالات سعيهم وغاياتهم . فما استطاعه هؤلاء ، يستطيعه ايضاً غيرهم ، بالجد والعمل الدؤوب وأدراك كنه هذه الهبة الرائعة ومقدار فائدتها ونفعها إن وُعي أمرها وأُحسن تعهدها .

ان العقل الباطن شخصية اضافية مستقلة ، يفوق

١ــ جيوسيب تارتيني : موسيقار ايطالي مشهور بعزفه على الكمنجة ونظرياته الموسيقية .

٢ ــ ماعدا العباقرة الموهوبين بالفطرة والتي تظهر عبقريتهم في سن مبكرة .

شخصيتنا الاصلية علماً وقوة وثباتاً ، ويبزنا في ميادين ما نحاول ان نتعلمه بمراحل كثيرة ، ويمد لنا يد المساعدة في رفق ويسر بلا اجر ولا منة ، كل مبتغاه منا أن نكل اليه امرنا بعد ان نكون استنفذنا كل جهدنا . ولكن يجب مع ذلك ان لا يسهو عن بالنا بانه في كل الاحوال سيّد امره ، ان استجاب فوراً لداعي العقل مرة ، فانه قد يستأخر إجابته اياماً طويلة مرات . أمّا شكل الاجابة عنده فانه ثابت لا يتبدل ، يشعر به المرء كالومضة الخاطفة تغمر بالضياء زوايا عقله ، ويتدفق الحل والفكرة عليه كالسيل العرم حتى ليكاد يسبق يد الكاتب المشدوه امام هذا الفيض العجيب ، ثم يبطل السحر فجأة كما بدأ ، وتعود الامور الى مجاريها ، وتُرجأ التتمة الى موعد آخر ان كان قد بقي منها ما يستوجب الاتمام .

وقد لا يقتصر عمل العقل الباطن فى بعض الاحيان على الايحاء بالفكرة المصيبة او الحل الصحيح للعقل الواعي ،

بل يتعداه الى القيام بالعمل المطلوب بنفسه . فقد روى العالم النفساني « رونجر » قصة أديبين شابين يقطنان معاً ، كانا يقومان من فراشهما ليلاً وهما نائمان وعيناهما مغمضتان ، فينجزان في الظلام الدامس القصائد والمقالات التي لم يكونا قد انجزاها ثم يعودان فيندسان في فراشهما وهما لايزالان نائمين ويروي « ريوجين »[1] في كتبه انه عرف فيلسوفاً من معاصريه كتب احسن نظرياته وتلاها ونقحها وهو نائم .[2] وفي محفوظات اكاديمية الطب الفرنسية قصة فتاة بارحت فراشها وهي نائمة وهامت يوماً وليلتين في القرى والطرق العامة تبحث عن عمل يقوم بأودها ثم

---

١ – ديوجين لايرت : مؤرخ يوناني ولد في كيلكية في القرن الثالث قبل المسيح اشتهر بتأريخ حياة الفلاسفة الاقدمين ، وهو غير الفيلسوف ديوجين الذي عاش قبله بمئة عام .

٢ – فيكون العقل الباطن قد قام بالذات بالعمل المطلوب وسخر اجسامنا لتنفيذ ذلك العمل .

انتبهت لنفسها في دار أحد مستخدميها فعادت الى ذويها .

ولكن مثل هذا التصرف من قبل العقل الباطن لا يقاس عليه ويعتبر من قبيل شذوذ القاعدة ويعطي البرهان على استقلاله استقلالاً تاماً عن الارادة والعقل الواعي . فما يجب ان يستوقف تفكيرنا ليست اساليب نشاطه واشكال ظهوره ، بل كيفية تسخيره لخدمتنا واستغلاله لمنفعتنا ؛ وهذه الكيفية لا تعدو عن ان تكون الاقرار بوجوده والاطمئنان لمقدرته ثم العهدة اليه بما يجب عليه ان يفعله ، ثم ترقب نتيجة اجابته [1] ؛ واذا ما صادف ان اتبع في اجابته طرقاً لم يألفها منطقنا ، فانه ينبغي لنا ان لا نباغت بها ولا تتبلبل افكارنا منها ، بل نتقبلها بالقبول الحسن ونسرع بتدوينها خوفاً من ضياعها ؛ فقد قال « شيللر » ، وهو أحد خبراء

---

١ ــ ويكون الترقب متصلا حتى اذا جاءت الاجابة دونما صاحب العلاقة رأساً .

علم النفس ، بان الخسران المبين للإنسان هو أن يجعل منطقه بالمرصاد لما يفيضه عقله الباطن عليه ، اذ ان الفكرة الطارئة التي تبدو شاردة ، اذا ما جمعت الى اخواتها الشاردات ، شكّلت معها وحدة منطقية قيّمة ، قد يكون لها شأنها وخطرها .

الفصل السادس

العبقرية الخلقية

يجب أن يعلم الجميع بان الفضيلة ليست حالا طبيعية عفوية ، بل كسباً جليلا يجنيه العقل أو سمة نبيلة تفرضها البيئة .

ارسطاليس

تمتاز العبقرية الخلقية عن غيرها من العبقريات بتعدد نواحي نشاطها وسعة مجالاتها وبالغ أثرها في الروابط الاجتماعية وحياة الافراد وصفاتهم النفسية . وهي تختلف عن العبقريات العلمية والرياضية والفنية بطول فترة حضانتها وهدوء طريقة ظهورها وصعوبة تقدير وجودها لانعدام ميسم خاص لديها تسم به اصحابها فيتعرف الناس عليهم من الشذوذ الغالب على تصرفاتهم .

ويجد عباقرة الخلق انفسهم مساقين بحكم رسالتهم للخوض في بحث كل ما يهم الفرد عقلياً وجسدياً واجتماعياً ؛ فتراهم يضعون النظم الاجتماعية وينطقون بالنظريات العلمية ويقطعون بالاحكام الحقوقية ويدلون بالآراء الفلسفية ، كل ذلك بشكل متداخل متوافق متكامل يدعو المدهشة والحيرة، الحيرة من هؤلاء الذين يشرّعون ويفتون ويحكمون

ويأمرون وينهون ، ثم لا يخطئون .

وتنقلب هذه الدهشة والحيرة في الاحوال غير العادية التي يكون فيها الوحي الالهي هو مصدر تلك العبقرية الى ايمان عميق في شخص صاحب الرسالة ، وتسليم اعمى للمباديء والتعاليم التي ينادي بها ويدعو الناس الى اعتناقها .

مثال ذلك العقيدة الاسلامية . لما كان قصد الاسلام في نزوله بناء مجتمع مثالي في صحته وخلقه وعلمه ، فقد كان لزاماً عليه ان يأتي بدستور مكتمل الصفات والشروط يكفل له غايته في حاضره ومستقبله ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فأتى به ، وقبله الناس على أنه سماوي من الخالق ، وهو في الواقع كذلك ، وعملوا به على انه عبادات لمرضاته طمعاً بجنته وخوف عذابه ، وهو ايضاً في ظاهره كذلك ، ولكن قليلاً منهم أدرك من خلاله ان الغنيّ عن العالمين لم يقصد به إلاّ خير عباده .

والناحية العلمية في موضوع هذا الخبر متشابكة مع ناحيته الفلسفية تشابكاً يتعذر معه على المرء ان يخوض في بحث الاولى بدون أن يتعرض للثانية او عن غير طريقها . لذا فاننا سنطرق الموضوع من أبسط اطرافه ونساير « التقدميين المتطرفين » في احكامهم على الدين ، وننفي معهم وجود الخالق ، وننكر الوحي المنزل ، ونقضي بان القرآن كتاب وضعه اعرابي من قريش يدعى محمد بن عبد الله ، ونحكم بانه من غير المعقول ان يصطفى الله مخلوقاً أمياً من شعب لا تراث له ولا مدنية ، ليجعل منه مهبط وحيه وحامل رسالته .

اننا لسنا في معرض دراسة تاريخ الامم فما بين ايدي الناس من كتب واسفار ومراجع ، تفيض عن الحاجة واللزوم ، وصفحاتها مكتظة بالحقائق والنظريات والقصص والحكايات ، ان اختلفت بعض الشيء في الوقائع ، فقد اجمعت على ان طور الانحلال والتدهور في الامم يبدأ حين تأخذ

الاخلاق في النقاص ويفقد العدل ميازينه ويعم الترف الفاسق وتتفشى الرذيلة ، وهو ما كانت عليه اكثر شعوب الارض المتمدنة في ذلك العصر .

لقد كان العرب في الجزيرة شعباً فطرياً جاهلاً فقيراً ولاشك ، ولكنه كان باقرار من عادى من المؤرخين ومن والى ، مميزاً بصفات عرقية اصيلة ما توفرت لمجموع امة من امم الارض ابداً ، وهي صفات الصدق والامانة والجرأة والاقدام والحمية والمروءة والعدل والمساواة ، وهي كلها في فلسفة الثورات ، العناصر الاساسية التي لابد منها لنجاح الانقلابات الاجتماعية وضمان حياتها فالعجب يبطل اذاً حكماً من ان يكون حامل الرسالة الانقلابية العالمية واحد من هؤلاء ، متعلماً كان هذا الواحد أو أمياً ، لان النتيجة في كلا الحالين واحدة : إن كتابه قد أفحم المتعلمين والجهلاء على السواء ، وما احتوى عليه من اوامر ونواه ، لم ينفذ العلم الى بعض سرها الا منذ زمن قصير ؛ فلا كتب

الاغريق ولا الرومان ولا الفرس ولا الصين ولا الهنود ، مع صعوبة احتمال امكان اطلاعه عليها ان كان متعلماً واستحالة ذلك ان كان اميا ، قد اوردت تعليلا اوتفسيراً لما جاء به . اما طرق الترغيب والترهيب فيه [1] ، وهي خارجة عن الموضوع ، فتابعة للحقيقة القائلة بان الامم كالافراد ، لها في عقولها طفولة ويفوعة وكهولة ، وان حجتك في الاقناع مع طفلك غيرها مع زميلك او أخيك ، وان النبي قد أُمر ان يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وان العذاب والثواب مرهونان بنوع المخلوق وطاقته .

اما البعث [2] ، فلم يعد فيه ذرة من شك بعد ان قطعت دراسة تحلل الذرات الحية واعادة جمعها اشواطاً بعيدة واصبحت الآلات المصوِّرة لأحداث عفت عليها القرون مهيئة جاهزة [3]

---

١ ــ هي القاعدة التي يتخذها ادعياء التقدمية في تهجمهم على المعتقدات .

٢ ــ وهو القاعدة الهجومية الثانية لادعياء التقدمية .

٣ــ اشارة الى الآلة التي يقول مخترعوها انه بوسعها تصوير احداث مهمة عبر التاريخ كالحروب والكوارث القديمة والتي لاتزال ذرات صورها منتشرة في الفضاء.

فاذا كان كل هذا واكثر منه يستطيعه مخلوق بشر فأي غرابة بقيت في ان يبعث الانسان حياً في مستقبل الايام ليثاب او يعاقب على ما فرّط بحق نفسه وحق اخيه الانسان كائناً من كان ؟

وقد بحث القرآن لتنسيق المجتمع في تشريعات عدة ، سياسية [١] وقضائية [٢] وتجارية [٣] وزراعية [٤] ونظّم احكام الصلات الاجتماعية [٥] واصول الحقوق المتبادلة [٦]

---

١ – وتتضمن السياسة العامة للدولة ، والخلافة والتنصيب والمبايعة ، ووظيفة السفراء وخطاب الملوك والامراء ، وقد جمعت كلها ورتبت بشكل جدول لاحق لهذا البحث كي يسهل الرجوع اليها عند اللزوم .

٢ – وتشمل شروط القاضي والقضاء والشهادة والقصاص والاحكام ، والتحذير من الرشوة والظلم وشهادة الزور ، وقد ادرجت كذلك في الجدول اللاحق .

٣ – وتدخل فيها متفرعات التجارة من عقود وقروض وديون وربا واجور وافلاس وحجر وغيرها مما ذكر أيضاً بشكل ضاف في الجدول .

٤ – وفيها بيان لاصول المزارعة والمغارسة والحرث ، ذكرت ايضاً في الجدول اللاحق .

٥ – من زواج وطلاق وتبني وحقوق الرقيق والاماء والموالي والايتام والمساكين وابناء السبيل الخ . . . ذكرت آياتها بحسب أبحاثها في الجدول .

٦ – كحقوق الوالدين والاقارب والجيران واخوان الدين وحسن المعاملة والاستقامة والاحسان ، اوردنا آياتها بترتيب ابحاثها في الجدول المذكور .

ثم خص الفرد باوامر ونواه قسرية ، ثبت من معالجتها العلمية انها قبل كل شيء في مصلحته الذاتية .

فشرط الشهادة الأوّل في ترتيب أركان الاسلام ، من جهته البسيكولوجية ، تمهيد للإقرار بصواب ما يتضمنه القرآن وما يقول به الرسول الاعظم . اما الشروط الاربعة الباقية ، فاثنان منها فرديان وهما الصلاة والصوم [1] ، واثنان اجتماعيان وهما الزكاة والحج .

اما الصلاة [2] ، وهي في العرف العام صلة بين المخلوق وخالقه وطراز راق من الرياضة البدنية السويدية ، فان دراستها العلمية والفلسفية تكشف الحجاب عن عجيب اوجه نشاطها القيمة . فحركاتها الرتيبة الهادئة المنسجمة التي يشترك في أدائها كل مفصل وكل عضلة [3] ، تفعل

---

١ ــ في الحديث الشريف : « عرى الاسلام وقواعد الدين ثلاث : شهادة أن لا اله الا الله والصلاة المكتوبة وصوم رمضان » .

٢ ــ لما كان موضوع الدراسة علمياً فقد تجاوزنا عن التفسيرات الدينية .

٣ ــ يشترط لذلك ان تؤدى الصلاة على اصولها من اشباع للحركة واستراحة للجوارح بين الحركة والأخرى .

بالجسم ما لا تستطيعه أشد الرياضات عنفاً، وتكسبه مرونة وقوة تلازمانه ما زال مصلياً وحياً [1] . ان قسوة التدريب ودوامه قد يرفعان بصاحبهما إلى مصاف الابطال، ولكن ذلك لن يكون إلا على حساب المواهب العقلية لانه من الثابت ان الافراط في الالعاب الرياضية يمنع العقل من النمو وقليل من الرياضيين من هو على حظ وافر من الذكاء . فالجسد كله وحدة متناسقة من الممكن تنميتها جملة بالعمل الوئيد المضطرد ، ولكنه لا يستطيع أبداً كسباً بارزاً في احدى نواحيه إلاّ على حساب بقية الاعضاء والحواس والملكات [2] ؛ والاسلام يعرف ذلك جيداً ، لذا فانه لا يريد امة تفور جيلاً ثم تهمد دهراً او تومض قرناً ثم تخبت أبداً ، بل يريد أمة وسطاً

---

١ ـ في الحديث الشريف : من عاش تقياً عاش قوياً .

٢ ـ يعتقد الدكتور « فيسنجر » ان الابطال الرياضيين اقل مقاومة للامراض الانتانية من غيرهم لانتشارها في الدم وتعممها في الجسم بسبب نقص خاصة البلغمة في الكريات البيضاء .

متساوية بالعقل والجسم والفضل والعلم ، حتى المال أراده بينها مشتركا والحد الوسط في الامم كحده في الافراد ، فالعملاق النحيل عرضة لانواع العته والسل كما ان القصير الممتلىء عرضة لامراض السكر والنقرس ، وليس كالرجل الربعة مقدرة على مغالبة دهره زمناً طويلاً .

فالصلاة ، هذا التدريب اليومي الرفيق في الصباح وفي المساء وقبيل طعام الغذاء والعشاء وبعيد القيلولة ، عدا عن تنشيطها للدورة الدموية بصورة متصلة ، فانها ، بحركة المفاصل الدائمة أثناء أدائها ، تمنع ترسبات الأملاح فيها وتضطر الجسم الى امتصاصها .

وهي بالاضافة الى ذلك تمنع أعمالنا الفكرية والجسدية من أن تنحط كفاءتها عندما يتجاوز الجهد المبذول المقدار الطبيعي للعمل [1] فترغمنا على استراحات قصيرة نحوّل

---

١ – وهي الفترة الواقعة بين الفجر وصلاة الظهر والمخصصة للعمل اذ لا صلاة مفروضة فيها .

فيها جهودنا عن طبيعة أعمالنا ، حتى اذا ما عدنا اليها بعدها ، كنا أوفر نشاطاً وأشد انتباهاً .

اما ما فوق ذلك كله ، هو أن الصلاة باوقاتها نظام يُخضع الانسان نفسه عليه بمجهود ارادته ، ليحفظ عليه استواء عقله وبدنه . فكل امرئٍ يولد ، بقدر ، اما صالحاً أو طالحاً أو بين بين ، ولكنه لا يولد الاّ وبين يديه مفاتيح كنوز أخلاقه ومحاسنه ومزاياه تهديه اليها تربية صالحة وترويض دائم للارادة . والاخلاق صفة متقاربة النسب مع الارادة والذكاء ولكنها تفوق أهمية كلا الاثنين لما لها من تأثير خطير مباشر على الكيان الاجتماعي في الامم . فالصلاة هى قوام النظام الذي يعتبر اولى دعائم الاخلاق وسلم ارتقاء الافراد ؛ اما دعامته الثانية ، وهو العلم ، فما من دين جعلها في صلبه كما جعلها الإسلام ، وما من رسول حث عليه الناس كما حث عليه محمد بن عبد الله . ففي القرآن الكريم : « يرفع الله الذين آمنوا منكم

والذين أوتوا العلم درجات [1] » ؛ وفيه : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون [2] ؟ » « وما يستوي الاعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوي الاحياء ولا الاموات [3] ». كما فيه أيضاً ثلاثون آية غيرها تبحث صراحة او كناية في العلم والحكمة وثواب طلبهما وتعليمهما وحرمة كتمانهما [4].

---

١ ـ سورة المجادلة القسم الاخير من الآية ١١ .

٢ ـ سورة الزمر القسم الاخير من الآية ٩ .

٣ ـ سورة فاطر الآيات ١٩ الى ٢٢ .

٤ ـ وهي :

آ ـ الحث على العلم وابتغاء الحكمة :

الآية ١٢٩ و ١٥١ و ٢٦٩ من سورة البقرة
الآية ١١٣ من سورة النساء
الآية ١١٠ من سورة المائدة
الآية ١١٩ من سورة الانعام
الآية ٧ من سورة الانبياء
الآية ٣٤ من سورة الاحزاب

ب ـ تعلم العلم والرحيل في طلبه وتعليمه وحرمة كتمانه :

الآية ١٥٩ و ١٧٤ من سورة البقرة
الآية ١١٢ من سورة براءة

(التتمة في الصفحة التالية)

وفي الحديث الشريف : « لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة [1] » وفيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر ، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة ،

الآية ٤٣ و ٧٥ من سورة النحل
الآية ٦٠ و ٨٢ من سورة الكهف
الآية ٧ من سورة الانبياء
الآية ٢٦ من سورة الملك
الآية ٢ و ٤ من سورة عبس
الآية ٤ و ٥ من سورة الفلق

ج ـ فضل الراسخين في العلم :

الآية ٧ من سورة آل عمران
الآية ١٦٢ من سورة النساء
الآية ٥ من سورة يونس
الآية ٧٦ من سورة يوسف
الآية ١٠٧ من سورة الاسراء
الآية ٥٤ من سورة الحج
الآية ٤٣ من سورة العنكبوت
الآية ٢٨ و ٣٢ من سورة فاطر

[1] ـ من ابي سعيد الخدري رضي الله عنه ، رواه الترمذي بسند حسن .

والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهل الله له طريقاً الى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون الكتاب ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه »[1] . وفيه ايضاً عن انس بن مالك رضي الله عنه : « طلب العلم فريضة على كل مسلم[2] » وفي رواية ومسلمة .

اما الدعامة الثالثة ، وهي الارادة ، فا الدستور الاجتماعي الاسلامي برمته امتحان لها ورياضة ، وما الفرائض والوجائب والسنن والمستحبات والمحرمات والمكروهات الاّ اساليب وطرق تلتقي كلها ولا تنتهي عند غاية صقل الارادة وتهذيبها

---

١ ــ رواه مسلم وابو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حيان والحاكم في المستدرك .

٢ ــ رواه ابن ماجة .

حتى تصبح كصم الصخر صلابة وتمسي الفضيلة بين المسلمين سليقة .

ان الاسلام لا يفرق بين أخلاق شخصية واخلاق اجتماعية . ان الاخلاق بالنسبة اليه سلسلة واحدة متماسكة ، ان فسدت حلقة واحدة منها ، فسدت كلها وذهب نفعها ؛ فالظالم في النار ولو صام دهره [1] ، والزاني في النار ولو قام ليله [2] ، والمرابي

١ــ لقد ورد الترهيب من الظلم في اثنتين وستين آية من القران الكريم وهي :
الآية ١٦٥ و ٢٥٤ و ٢٧٩ من سورة البقرة
« ٤٠ من سورة النساء
« ٢ و ٢٩ و ٥١ و ٧٢ و ١٠٧ من سورة المائدة
« ٢١ و ٣٣ و ٤٥ و ٥٢ و ٥٨ و ٦٨ و ٧٠ و ٩٣ و ١٣١ و ١٣٥ من سورة الانعام
الآية ٣٣ و ٤٤ و ٤٥ و ١٨٠ من سورة الاعراف
« ٢٥ من سورة الانفال
« ٣٦ و ٧٠ و ١٠٩ من سورة براءة
« ٣٩ و ٤٤ و ٥٢ و ٥٤ من سورة يونس
« ١٨ و ١٩ و ١١٣ و ١١٧ من سورة هود
« ١٣ و ٢٢ و ٢٧ و ٣٤ و ٤٢ من سورة ابراهيم
الآية ٣٣ من سورة النحل

(التتمة في الصفحة التالية)

في النار ولو وهب الفقراء ماله[1] ، واللوطي في النار ولو

الآية ٧٢ من سورة مريم
« ٢٩ من سورة الانبياء
« ٢٥ و ٥٣ و ٦٠ من سورة الحج
الآيتان ٢٧ و ٣٧ من سورة الفرقان
الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء
« ٤١ من سورة الروم
الآيتان ١٨ و ٥٢ من سورة المؤمن
الآيات ٨ و ٢١ و ٢٢ و ٤٠ و ٤٢ من سورة الشورى
الآية ١١ من سورة الحجرات
« ٧ من سورة الصف
« ٥ من سورة الجمعة
« ١٢ من سورة القلم
« ١٠ من سورة البروج

وفي الحديث القدسي الطويل عن ابي ذر الغفاري رضي الله عنه : « ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » رواه مسلم والترمذي وابن ماجة . وعن ابي امامة اياس بن ثعلبة الحارثي رضي الله عنه ان النبي صلوات الله عليه قال « من اقتطع حق امرىء بيمينه فقد اوجب الله له النار وحرم عليه الجنة » فقال رجل : وان كان شيئا يسيرا يارسول الله ؟ فقال « وان كان قضيبا من اراك » رواه مسلم . وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله قال : « دخلت امرأة النار من جراء هرة لها ربطتها ، فلا هي اطعمتها ولا هي ارسلتها ترمرم من خشاش الارض حتى ماتت هزلا » رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

٢ ــ راجع ايات تحريم الزنى في الجدول اللاحق لهذا البحث . وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه : « اذا ظهر الزنى والربا في قرية فقد احلوا بانفسهم عذاب الله » رواه الحاكم والطبراني . وفيه ايضا عندما ساله عبد الله بن مسعود عن اعظم الذنوب عند الله : « ان تجعل لله ندا وهو خالقك » فقال عبد الله بن مسعود : ان ذلك لعظيم ! ثم اي ؟ قال : « ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك » فقال عبد الله بن مسعود : ثم اي ؟ قال : « ان تزاني حليلة جارك ! »

١ ــ راجع ايات تحريم الربا في الجدول اللاحق .

حج وجاهد [1]، والمغتاب في النار ولو زكي وانفق وقضى حياته ساجداً يتعبد، [2] الا من تاب من

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه انه قال : لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال : هم سواء ! رواه مسلم والترمذي .

١ ـ وقد ورد تحريمه مع المساحقة في سبعة ايات من القرآن الكريم وهي :

الآية ١٦ من سورة النساء
الآيتان ١٦٥ و ١٦٦ من سورة الشعراء
« ٥٤ و ٥٥ من سورة النحل
« ٢٨ و ٢٩ من سورة العنكبوت

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه الترمذي والبيهقي وابن ماجة . وفي الحديث الشريف عن ابي هريرة رضي الله عنه : « اربعة يصبحون في سخط الله ويمسون في سخط الله : المتشبهون من الرجال بالنساء والمتشبهون من النساء بالرجال والذي يأتي البهيمة والذي يأتي الرجال .

٢ ـ لقد ورد الترهيب من المكر والخديعة والحسد والبغضاء والاستهزاء واللمز في احدى وعشرين اية من القران الكريم وهي :

الآية ٢٧ و ١٧٧ من سورة البقرة
« ٣٢ و ١٠٧ من سورة النساء
« ١٢٣ و ١٢٤ من سورة الانعام
« ١٠٢ من سورة الاعراف
« ٧٩ من سورة براءة
« ٢٧ و ٥٨ و ٧١ من سورة الانفال

(التتمة على الصفحة التالية)

هؤلاء واصلح .

الآية ٢١ من سورة يونس
الآيتان ٢٠ و ٢٥ من سورة الرعد
« ٤٥ و ٩١ من سورة النحل
« ١٠ من سورة فاطر
« ٨٣ من سورة المؤمن
« ١١ و ١٢ من سورة الحجرات
« ١٠ من سورة الحشر

عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتدرون ماالغيبة ؟قالوا : الله ورسوله اعلم . قال : ذكرك اخاك بمايكره . قيل افرأيت ان كان في اخي ماأقول ؟ قال : ان كان فيه ماتقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته » رواه مسلم وابو داوود والترمذي . وعنه ايضا في الحديث الشريف : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ! » رواه مسلم . وعنه ايضا : « من اكبر الكبائر استطالة المرء في عرض رجل مسلم بغير حق » رواه ابو داوود .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اجاب عندما سأله عن النجاة : امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك ! » رواه الترمذي . وعن ابي موسى الاشعري رضي الله عنه انه سال رسول الله عن افضل المسلمين فقال : « المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه » رواه البخاري ومسلم .

الجـــدول اللاحق

١ - الاتجاهات السياسية :

ا - سياسة الدولة ونظامها :

الآية ٢٩ من سورة طه
" ٦٢ من سورة النور
الآيات ٣٢ و ٣٤ و ٣٧ من سورة النمل
الآية ٣٤ من سورة القصص
" ٢٦ و ٢٨ من سورة المؤمن
" ٣٨ من سورة الشورى
" ٧ من سورة الحشر

ب - الخلافة والتنصيب والمبايعة :

الآية ٣٠ من سورة البقرة
" ٥٩ و ٨٣ من سورة النساء
" ١٦٥ من سورة الانعام
" ١٤ من سووة يونس
" ٥٥ من سورة النور
" ٦٢ من سورة النمل
" ٣٩ من سورة فاطر
" ٢٦ من سورة ص
" ٧٥ من سورة الزمر
" ١٢ من سورة الممتحنة
" ١٦ من سورة التغابن

ج - وظائف السفراء وخطاب الملوك والامراء

الآيات ٢٨ ، ٣١ ، ٣٦ من سورة النمل

٢ - الابحاث القضائية :

ا — القاضي وشروطه :

الآية ١٨ من سورة الزخرف

ب - الحكم بالقرآن والعدل والتحذير من الرشوة والظلم :

الآيات ١٨٨ و ٢١٣ من سورة البقرة
الآية ٢٣ من سورة آل عمران
الآيات ٥٨ و ٥٩ و ٦١ و ٨٣ و ٨٥ و ١٠٥ و ١٣٥ من سورة النساء
الآيات ٨ و ٤٢ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٧ و ٥٠ من سورة المائدة
الآيات ٥٧ و ١١٤ و ١٥٢ من سورة الانعام
الآية ٢٩ من سورة الاعراف
الآيات ٧٦ و ٩٠ و ٩٥ من سورة النحل
الآية ٧٨ من سورة الانبياء
ـ ٣٢ من سورة النمل
الآيتان ٢ و ٣٦ من سورة الاحزاب
الآيتان ٢٢ و ٢٦ من سورة ص
الآيتان ٧٠ و ٧٦ من سورة الزمر
الآيات ١٠ و ١٣ و ١٥ و ١٧ من سورة الشورى
الآيتان ٢٢ و ٢٣ من سورة محمد
الآية ٩ من سورة الحجرات
الآيتان ٧ و ٨ من سورة الرحمن

الآية ٢٥ من سورة الحديد
الآيتان ١٠ و ١١ من سورة الممتحنة

ج - الشهادة وشروطها وشهادة الزور :

الآيات ٤٢ و ١٤٠ و ١٤٣ و ١٤٦ و ١٤٧ و ٢٨٣
و ٢٨٤ من سورة البقرة
الآية ٢٩ من سورة آل عمران
الآية ١٣٥ من سورة النساء
الآيات ٨ و ٤٤ و ١٠٦ و ١٠٨ من سورة المائدة
الآية ١٥٢ من سورة الانعام
» ٨١ من سورة يوسف
» ٣٦ من سورة الاسراء
الآيات ٤ و ٥ و ٢١ من سورة النور
الآية ٧٢ من سورة الفرقان
» ١٩ من سورة الزخرف
» ٦ من سورة الحجرات
» ٣٣ من سورة المعارج

د - القصاص واحكام الدماء والدية :

الآيتان ١٧٨ و ١٧٩ من سورة البقرة
الآيات ٢٩ و ٩٢ و ٩٣ من سورة النساء
الآيات ٣٢ و ٣٣ و ٤٥ من سورة المائدة
الآية ١٥١ من سورة الانعام
» ١٢٦ من سورة النحل
» ٣٣ من سورة الاسراء
» ٦٠ من سورة الحج
» ٦٨ من سورة الفرقان

هـ - الزنا وحده :

الآيات ١٥ و١٦ و ١٩ و٢٤و ٢٥من سورة النساء
الآية ٣٢ من سورة الاسراء
« ٥ من سورة المؤمنون
الآيتان ٢ و ٣ و ٢٦ و ٣٣ من سورة النور
الآية ٦٨ من سورة الفرقان

و - اللواط والمساحقة :

الآية ١٦ من سورة النساء
الآيتان ١٦٥ و ١٦٦ من سورة الشعراء
الآية ٥٤ و ٥٥ من سورة النمل
« ٢٨ و ٢٩ من سورة العنكبوت

ز - السرقة :

الآية ٣٨ من سورة المائدة

ح - القذف والسباب (اللعان) :

الآيات ٤ و ٦ و ٩ و ٢٣ من سورة النور

ط - التعدي وطريقة دفع الاذى :

الآية ٢٠٤ من سورة البقرة
الآيات ٢ و ٨٧ و ٩٤ من سورة المائدة
الآية ١١٢ من سورة براءة
« ١٨ من سورة الانبياء
« ٧ من سورة المؤمنون
« ٦٣ من سورة النور

الآيتان ٦٨ و ٦٩ من سورة الفرقان
الآية ٣٦ من سورة الاحزاب
« ٧٧ من سورة يس
« ٣٤ من سورة فصلت
الآيتان ٤ و ٥ من سورة المجادلة
الآية ٧ من سورة الحشر
الآيتان ١ و ٥ من سورة الطلاق
الآية ٢١ من سورة الملك
الآية ١٣ من سورة القلم
« ٣١ من سورة المعارج

٣ — الابحاث التجارية :

ا — التجارة والعقود والقروض :

الآيتان ٢٨٢ و ٢٨٣ من سورة البقرة
الآيتان ٦ و ٢٩ من سورة النساء
الآية ١ سورة المائدة
« ٣٧ من سورة النور
الآيات ٢٦ و ٢٩ و ٧٣ من سورة القصص
الآية ١٧ من سورة العنكبوت
الآية ٢٣ من سورة الروم
الآيتان ٢٩ و ٣٠ من سورة فاطر
الآية ٢٤ من سورة ص

ب — تجارة البر والبحر :

الآيات ١٦٤ و ٢٦٧ و ٢٧٥ من سورة البقرة
الآية ١٠ من سورة الاعراف

الآيتان ٢٠ و ٢١ من سورة الحجر
الآية ١٤ من سورة النحل
الآيتان ٦٦ و ٧٠ من سورة الاسراء
الآية ٤٦ من سورة الروم
» ١٢ من سورة فاطر
» ١٢ من سورة الجاثية
» ١٥ من سورة الملك

ج - الكيل والميزان والمال الحرام :

الآية ١٨٨ من سورة البقرة
» ٧٧ من سورة آل عمران
الآيات ٢ و ٢٩ و ١٦١ من سورة النساء
» ٤٢ و ٦٢ و ٦٣ و ١٠٠ من سورة المائدة
الآية ١٥٢ من سورة الانعام
الآيتان ٨٤ و ٨٥ من سورة هود
الآية ٣٥ من سورة الاسراء
الآيتان ٧ و ٩ من سورة الرحمن
» ١ و ٣ من سورة المطففين

د — الربا واحكامه :

الآيات ٢٧٥ و٢٧٦ و ٢٧٨ و ٢٧٩ من سورة البقرة
الآية ١٣٠ من سورة آل عمران
» ١٦١ من سورة النساء
» ٣٩ من سورة الروم

ه — الاجور :

الآيتان ٧٧ و ٩٤ من سورة الكهف
الآية ٢٥ من سورة القصص

و - التفليس والحجر والرشد :

الآيتان ٥ و ٦ من سورة النساء
الآية ٣٤ من سورة الاسراء

٤ — الابحاث الزراعية :

ا - المزارعة والمغارسة والحرث :

الآية ٢٦٦ و ٢٦٧ من سورة البقرة
الآية ٩٥ و ٩٩ و ١٤١ من سورة الانعام
» ٥٨ من سورة الاعراف
» ٧٨ من سورة الانبياء
» ٦٣ و ٦٤ و ٦٥ من سورة الواقعة

٥ — الابحاث الاجتماعية :

ا - الزواج واحكامه :

(نكاح المؤمنة والمشركة واليتيمة ، والخطبة والمعاشرة والفصل والنشوز)
الآيات ٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٣٢ و ٢٣٥ من سورة البقرة
الآيات ٣ و ٤ و ١٩ الى ٢٥ و ٣٤ الى ٣٦ و ١٢٧ الى ١٢٩ من سورة النساء
الآية ٥ من سورة المائدة
الآية ٧٢ من سورة النحل
» ٦ من سورة المؤمنون
الآيات ٣٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٦٠ من سورة النور

الآية ٢٧ من سورة القصص
» ٢١ من سوره الروم
» ٤٤ من سورة ص
الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الاحزاب
الآية ١١ من سورة فاطر
الآيات ١١ و ٤٩ و ٥٠ من سورة الشورى
الآية ١ من سورة المجادلة
» ١٠ من سورة الممتحنة
» ٣٠ من سورة المعارج

ب - الطلاق واحكامه :

(انواع الطلاق ونفقته ، والخلع واحكامه)
الآيات ٢١٥ و ٢٢٦ الى ٢٢٩ و ٢٣١ الى ٢٣٣ و ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٨٠ من سورة البقرة
الايتان ١٩ و ١٣٠ من سورة النساء
الآية ٢٦ من سورة الاسراء
الآيات ١ و ٢ و ٤ و ٦ و ٧ من سورة الطلاق
الآيتان ٤ و ٤٩ من سورة الاحزاب
» ١ و ٤ من سورة المجادلة
» ١٠ و ١١ من سورة الممتحنة
الآية ١ من سورة التحريم

ج - التبني :

الآيات ٤ و ٥ و ٤٠ من سورة الاحزاب

د - الرقيق والموالي والاماء :

الآية ١٧٧ من سورة البقرة

الآية ٧١ من سورة النحل
« ٣٣ من سورة النور

٥ ـ حقوق الايتام والمساكين وابناء السبيل :

الآيات ٨٣ و ١٧٧ و ٢١٥ من سورة البقرة
الآيتان ٨ و ٩ من سورة النساء
الآية ٢٦ من سورة الاسراء
« ٣٨ من سورة الروم
الآيتان ١٧ و ١٩ من سورة الفجر
« ٩ و ١٠ من سورة الضحى

و ـ الارث والوصاية وحكم اموال اليتامى :

الآيات ١٨٠ و ١٨٢ و ٢٢٠ و ٢٤٠ من سورة البقرة
الآيات ٢ و ٧ و ٨ و ١٠ الى ١٣ و ١٩ و ٣٢
و ٣٣ و ١٢٧ و ١٧٦ من سورة النساء
الآية ١٥٢ من سورة الانعام
الآيتان ٧٣ و ٧٥ من سورة الانفال
الآية ١٠٦ من سورة المائدة
الآيتان ٦ و ٣٤ من سورة الاحزاب

٥ ـ ابحاث الحقوق المتبادلة :

ا ـ حقوق الوالدين والاقارب والجيران واخوان الدين :

الآيات ٢٧ و ٤٤ و ٨٣ و ١٧٧ و ٢١٥ من سورة البقرة

الاية ٩٢ من سورة آل عمران
الايات ١ و ٨ و ٣٦ من سورة النساء
الاية ١٥١ من سورة الانعام
الايتان ٢١ و ٢٥ من سورة الرعد
الاية ٩٠ من سورة النحل
الايتان ٢٣ و ٢٦ من سورة الاسراء
الاية ٨ من سورة العنكبوت
« ٣٨ من سورة الروم
الايتان ١٤ و ١٥ من سورة لقمان
الاية ٥٨ من سورة الاحزاب
الايتان ١٥ و ١٧ من سورة الاحقاف
« ٢٢ و ٢٣ من سورة محمد
الاية ٧ من سورة الماعون

ب - حسن المعاملة واداء الامانة الاصلاح .

الايات ٢٤٤ و ٢٨٠ من سورة البقرة
الاية ٧٥ من سورة آل عمران
« ٥٨ من سورة النساء
« ١ و ٢٧ من سورة الانفال
« ٧١ من سورة النمل
« ٨ من سورة المؤمنون
« ٣٢ من سورة المعارج

ج - الاستقامة والوفاء بالعهد والعفو والاحسان :

الايتان ٥ و ٦ من سورة الفاتحة
الايات ٤٠ و١٠٠و ١٠٩ و١١٠ و ١٤٨ و١٧٧
من سورة البقرة

الايات ٧٦ و ٨٢ و ١٣٤ من سورة آل عمران
» ١٤٩ من سورة النساء
» ٧ و ١٥ من سورة المائدة
» ١٥٢ من سورة الانعام
» ١٩٩ من سورة الاعراف
الايتان ٧٥ و ١١١ من سورة براءة
الاية ٨٩ من سورة يونس
» ١١٢ من سورة هود
» ٢٠ من سورة الرعد
الايتان ٣٠ و ٩٠ من سورة النحل
الاية ٣٤ من سورة الاسراء
الايتان ٨ و ٦١ من سورة المؤمنون
الاية ٢٢ من سورة النور
» ٣٢ من سورة لقمان
الايتان ٦ و ٣٠ من سورة فصلت
» ١٥ و ٤٠ من سورة الشورى
الاية ٨٩ من سورة الزخرف
» ١٣ من سورة الاحقاف
» ٢١ من سورة الحديد
» ١٤ من سورة التغابن
» ٢٢ من سورة المعارج
» ١٦ من سورة الجن
» ٢٨ من سورة التكوير .

الفصل السابع

حكم وأحكام

ان البعض يؤمن على اساس الشعور ، والبعض الآخر على اساس تعاليم محفوظة ، فلا هذا الاساس يصلح ولا ذاك ، وانما يصلح الايمان القائم على العقل، ليتمتع الانسان بالطمأنينة والصبر ويقيه بلاء هذا العصر .

تحدثنا في فصل العبقرية الخلقيّة عن الشروط الفردية والشروط الاجتماعية في الشهادة وقلنا بان الشرط الفردي الاوّل هو الصلاة وان الثاني هو الصيام . والصيام لغة هو الامتناع عن شيء أو أشياء معينة قد تكون طعاماً أو شراباً أو كلاماً أو غيرها ؛ اما اسم شهره فهو رمضان ، وهو صيغة فعلان من الرَمَض ويعني شدة وقع الشمس على الرمل [1] .

وقد اسمي شهر رمضان بهذا الاسم ، لأن العرب عندما نقلوا اسماء الشهور عن اللغة القديمة [2] ، اسموها

---

١ ــ فيقال : رمض يومنا ، اي اشتد حره ؛ وفي الحديث الشريف : صلاة الاوابين اذا رمضت الفصال ، والفصال جمع فصيل وهو ولد الناقة ، اي عندما تشعر بالحر .

٢ ــ كان العرب الاقدمون سواء في جنوبي الجزيرة العربية او في شماليها ، قبل الميلاد وبعده ، يستعملون للشهور اسماء شتى ، منها في الجنوب : « ذو حجتين ، ذو تمنع ، ذو برم الخ . . . » ومنها في الشمال : « المؤتمر ، ناجر ، خوان ، صوان ، الخ . . . » وقد دثرت هذه الاسماء واشباهها ولم تبق الا الاسماء التي شاعت عند عرب الحجاز قبيل ظهور الاسلام وهي المستعملة في التاريخ الهجري ، وهي : المحرم ، وصفر ، وربيع الاول ، وربيع الآخر الخ . . .

بحال الازمنة التي وقعت فيه ، فوافق هذا الشهر ايام رمض الحر ، فسمي بذلك وهو يلي بترتيب شهور السنة الهجرية شهر شعبان الذي غلب اسمه على تسميته الجاهلية السابقة ، وهي شهر « عاذل » ، قبل الاسلام بحوالي مئتي سنة . ومادة « عذل » كمادة « لذع » تفيد معنى الحرارة في اللغة العربيّة ، وقد سمي عاذلاً لأنه كان يأتي على الدوام بعد الربيع ، في أوائل الصيف . وقد قيل أن سبب طغيان اسم شعبان عليه هو تشعب القبائل فيه للماء والغارة بعدسكون الاشهر الحرم التي منها شهر رجب السابق لشهر شعبان ، وقيل أيضاً أن السبب في ذلك هو تشعب أعواد النبات فيه . ولكن مهما كان السبب ، فانه من المؤكد أن شعبان كان شهراً قائظاً يتبعه شهر أشد قيظاً منه هو شهر رمضان .

اما أن تكون هذه الشهور قد أصبحت تقع في غير الفصول التي تدل عليها أسماؤها ، فمرد ذلك اهمال ما كان

يتبعه عرب الجاهلية في حسابها ، إذ كانوا يضيفون تسعة شهور الى كل خمسة وعشرين سنة ، لتعود الشهور إلى مواعيدها من الفصول بعد أن تكون قد تداخلت فيها بعض الشيء [١] .

والصيام عبادة معروفة منذ القديم ، أوصى وعمل بها عدد من الانبياء والرسل [٢] وعلى رأسهم نوح عليه السلام إذ صام شكراً لله في اليوم العاشر من شهر محرَّم ، وهو اليوم الذي خرج به ومن معه من الفلك بعد أن مكثوا فيه مئة وثمانين يوماً كاملة ، منها خمسة أشهر على الماء [٣]

---

١ ــ كان العرب يعتمدون اول الامر على احبار اليهود في هذه الحسابات ، ثم تولاها بنو مالك بن كنانة وتصرفوا بها حسب اهوائهم ومقتضيات ظروفهم من تأخير وتقديم ، وفي هذا يقول عمرو بن قيس :

السنا الناسئين الى معد شهور الحل نجعلها حراما

وهو قول خاطىء في معرض التفاخر ، لانه كان يقصد العكس ، وان قومه كانوا يؤخرون الاشهر الحرم تطويلا لايام القتال . وقد ظل الامر كذلك الى ان حرم الاسلام النسيء تحريماً قاطعاً .

٢ ــ اشارة الى الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » . « سورة البقرة ١٨٣ »

٣ ــ لقد كان ركوبهم فيها في اليوم العاشر من رجب .

وشهر واحد على جبل الجودي [1] حيث استقرت بعد طول المطاف [2] .

وكان سيدنا ابراهيم يصوم من كل شهر عُشره ، ويصوم داوود عليه السلام منه نصفه ، يمسك يوماً ويفطر يوماً . وفي هذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « صام داوود نصف الدهر وصام ابراهيم ثلاثه أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر » [3] اما النبي موسى عليه السلام ، فقد كان يصوم من السنة شهراً واحداً ، استكثرته امته من بعد ، فاكتفت بيوم واحد هو يوم انقاذها من فرعون وجنوده ، تصومه شكراً لله على منته [4] .

---

١ ــ جبل يقع بالقرب من بحيرة وان فى جنوب غربي البلاد التركية .

٢ ــ الرواية لقتادة .

٣ ــ عن عبد الله بن عمر .

٤ ــ هو ايضاً يوم عاشوراء .

اما صيام رمضان [1] ، فامر يتحدث عنه الناس منذ ان فرضه الله على المسلمين. وقد تنافس الكتاب في اظهار محاسنه ، ولا يزالون ، وتبارى الحكماء والاطباء في حكمة مشروعيته وبحث فوائده ، ولا يزالون ، ولكن مجمل ما قالوه وما كتبوه لا يعدو أن يكون تكراراً لما كان قد سبقهم اليه غيرهم ، مع بعض التفاوت في العرض والاسلوب [2] .

لقد قالوا في ما قالوا بأن الصيام قد فرض لتحرير الانسان من ربقة عبودية عاداته ، كأن ضرورة تغذية الجسد

---

١ ـ لقد ورد ذكر الصيام في سبع ايات من القران الكريم هي :

آ ـ فرض الصيام وعدته :

الآيات ١٨٣ و ١٨٥ من سورة البقرة

ب ـ شروط الصيام وقضاؤه وكفارته :

الايات ١٨٤ و ١٨٥ و ١٨٧ من سورة البقرة

ج ـ ثواب الصيام :

الاية ١١٢ من سورة براءة

د ـ ليلة القدر :

الاية ٤ و ٦ من سورة الدخان

الاية ٢ و ٥ من سورة القدر

٢ ـ حجتهم فى ذلك القول السائر : لو لم يكرر القول لنفذ

عادة ضارة ؛ وقالوا بان الغرض منه احساس الغني بالجوع ليرقّ للفقير فيحسن اليه ، كأن فضيلة الاحسان مقرونة بالاحساس بالجوع تأتي مع رمضان وتذهب معه ثم يهلك الفقير جوعاً بعده ، او كأن أشد ما يضير الصائم هو رغبته في الطعام لا حاجته الملحة الى الماء الموفور بالمجان للغنيّ وللفقير على السواء ؛ وقالوا ايضاً بانه عامل قوي من العوامل المنقية للجسم من سموم الأغذية ، كأن الجسم مستودع للسموم، يكفيه لاستفراغ كل ماتراكم فيه طيلة ثلاثمائة وثلاثين يوماً بلياليها ، العزوف عن وجبة طعام الظهر لفترة شهر واحد فقط؛ وقالوا بانه تربية للإرادة وتهذيب للنفس وتصفية للروح ورياضة للصبر والعزيمة ، وفي هذا ايضاً لم يصيبوا إلا طرفاً واحداً من الحقيقة .

في القرآن الكريم أن الصيام قد فرض على المسلمين

لعلّهم يتقون [1] ، وفي الحديث الشريف : « كم من صائم ليس له من صومه إلاّ الجوع والعطش » [2] ، وفيه أيضاً : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » [3] وعن مجيبة الباهلية عن ابيها أو عمها أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقد تغيرت أحواله بعد أن غاب عنه حولاً كاملاً فقال : يا رسول الله أما تعرفني ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : انا الباهليّ الذي جئتك العام الاوّل ؛ قال : وما غيّرك وقد كنت حسن الهيئة ؟ قال : ما أكلت طعاماً منذ فارقتك الاّ بليل ! [4] فقال له : عذبت نفسك ! ثم قال : صم شهر الصبر [5] ، ويوماً من كل شهر ؛ قال : زدني فان

---

١ ــ التقوى هي الايمان بالغيب ، واقامة الصلوات على اعتبارها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والانفاق مما رزق الله . « سورة البقرة »

٢ ــ رواه النسائي وابن ماجة .

٣ ــ رواه البخاري

٤ ــ يقصد انه صام الحول كله .

٥ ــ اي شهر رمضان .

بي قوة قال . صم يومين ؛ قال : زدني فان بي قوة ؛ قال : صم ثلاثة أيام ؛ قال : زدني . قال : صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك ؛ وقال باصابعه الثلاث فضمها ثم أرسلها [1] ؛ ويقول الامام الشافعي في نصحه الرقيق : « أحب للصائم الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلّم [2] ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم وتشاغل كثير منهم فيه بالعبادة عن مكاسبهم » .

فالحكمة الروحية كامنة إذاً كلها في التقوى والصبر ، لافي الجوع ولافي التخلص من السموم. ولكن مايهم موضوع دراستنا هو البحث في أوجه الخير الحسّي للانسان في الصيام ، والحكمة من فرضه من فجر النهار إلى مغيب

---

١ ــ رواه ابو داوود .

٢ ــ اشارة الى ماقاله ابن عباس رضي الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ؛ وكان يلقاه جبريل كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل اجود بالخير من الريح المرسلة » .

شمسه [1] ، ولعل فيما يلي من الايضاحات العلمية بعض التفسير لاوجه هذا الخير الكثير والحكمة البالغة .

من المباديء الطبيعية المعروفة أن الامراض والآفات التي تنتاب الانسان مردها علّة بذاتها ، هي العنصر الفعال في الاصابة ، تتمكن من ناحية من نواحي الجسم بمعونة واحد من عنصرين ، أحدهما عنصر المساعدة ، وهو الذي يتيح للجرثوم الظرف الملائم ليأخذ طريقه إلى عضو بذاته ، كالبرد والاجهاد ، والثاني عنصر الاعداد ، ويكون عادة وراثياً أو مرضياً ، وهو الذي يجعل الجسم في حالة تحسس دائم لانواع خاصة من الامراض ، كالاستعداد للسل لدى المصابين بمرض السكري .

ومن المعروف أيضاً ما للنور [2] من شأن عظيم في

---

١ – يقتصر الصيام في بعض الاديان على الامتناع عن المآكل الدسمة واللحوم وتكون مدته من منتصف الليل حتى منتصف النهار .

٢ – يفهم بالنور هنا الاشعة الضوئية بما فيها الاشعة تحت الحمراء والاشعة فوق البنفسجية .

تنشيط وظائف البدن جميعاً وما له من تأثير في حبس بعض الامراض والحيلولة دون ظهورها في وضح النهار كالربو والنقرس . فالنور يزيد في عدد الكريات الحمراء في الدم ، ويرفع كمية حمض الكربون المنطلقة بالتنفس بمقدار الربع ، دلالة على ازدياد الاحتراقات الداخلية ، وينشط الاعضاء المفرغة للاختمارات المؤذية الناتجة عن سوء تمثل الأغذية ، وهي الجلد والرئتين والكليتين ولما كان للمجموعة العضوية وظيفتان ، واحدة للاستهلاك واخرى للإدخار ، فان النور والجهد يحثان هذه المجموعة على زيادة عملها الاستهلاكي ليقوم البدن بصرف ما لم يكن بحاجة اليه ، والذي تراكم بنتيجة عدم احتراق الفائض الغذائي عن المقدار الحروري اللازم لحياة الجسم وانقلب تشحمات نسيجية تغشى أعضاء حساسة ، فتضعف حركتها وتحد من نشاطها وتصبح آفة خطرة على الكائن الحي كله .

اما العلة في الامتناع عن الماء اثناء الصيام ، فمرتبطة

تمام الارتباط بالنسج الدهنية التي لها خاصة ضبط الماء تكسب به بعض المناعة ضد الاحتراق . لذا فاننا نرى بأن قواعد المعالجة في البدانة تقوم كلها على أساس الاقلال من السوائل جمعاء ، لان الاقتصار على القليل منه ، عدا عن أنه يسهل عملية الاحتراق ، يمنع ازدياد الغليكوجين في الكبد .

اما السموم ، فانها موفورة في الاجهزة الهضمية وغيرها ولكنها لا تنقص إلاّ باتباع نظام خاص في التغذية يبدأ من الصيام المطلق الى الامتناع عن أنواع معينة من الاطعمة ، ولا علاقة لها بالصيام بشكله المفروض .

فالحلال بيّن في الحق والحرام بيّن فيه ، ولكن ليعلمنّ الناس ان أحب الدين إلى الله ماداوم صاحبه عليه[1] وان الله أراد بهم اليسر ولم يرد بهم العسر وان عليهم

---

١ ــ حديث شريف ، عن عائشة رضي الله عنها .

بما يطيقون [1] فان لربهم عليهم حقاً ولانفسهم عليهم حقاً ولأهليهم عليهم حقاً وان عليهم أن يؤتوا كل ذي حق حقه [2] ، وأن القرآن الكريم قد فرض على الذين يطيقونه او من كان منهم مريضاً أو على سفر احكاماً بينة ، فمن اجتهد في اكثر مما ورد فقد هلك ، وما يفسد الدين كالجاهلين المتنطعين [3] .

وفي الاسلام أيضاً أن الزكاة حق معلوم للسائل والمحروم في مال من ملك ما يفيض عن النصاب [4] وأن

---

١ ـ عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة ، فقال من هذه ؟ قالت هذه فلانة تذكر في صلاتها . قال : مه ! عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا . وقد فسره النووي بان الله لا يقطع ثوابه عنكم حتى تملوا ، فينبغي لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم .

٢ ـ رواه البخاري عن ابي جحيفة .

٣ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : هلك المتنطعون ! واعادها ثلاث ،رواه مسلم .

٤ ـ نصاب الذهب عشرون مثقالا ويساوي ما يقارب المئة ليرة سورية او خمسة عشر جنيهاً مصرياً ونصاب الفضة مئتا درهم او مايساوي خمسين ليرة سورية او سبعة جنيهات ونصف . اما الانعام والزرع والشجر والثمر وعروض التجارة ، فتدفع زكاتها بالمقادير والشروط المبينة في كتب التشريع الديني ؛ وهي في كل الاحوال سنوية ، تحق بانقضاء الحول الكامل .

حج البيت فرض عين على من استطاع اليه سبيلاً .

اما الزكاة فان الناحية العملية فيه تتلخص بجمع المقدار المنصوص عنه [1] وتسليمه إلى بيت مال المسلمين ، ثم توزيعه على الفقراء والمعوزين كل بحسب حاجته .

وقد يبدو هذا الامر في مظهره على أنه عمل انساني يقصد منه توفير بعض الرفاه النسبي لعدد من المحتاجين من المواطنين ، امّا واقعه ونتائجه فانها تتلخص بما رواه يحيى بن سعد حيث قال :

— بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية ، فاقتضيتها ثم طلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها منا ؛ فقد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس ! فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم ...

لقد جهد المفكرون وخبراء الاقتصاد والعلوم الاجتماعية

---

١ — المقدار المنصوص عنه عن فائض النصاب هو اثنان ونصف بالمئة .

في العالم منذ زمن طويل لايجاد نظام مالي واجتماعي يكفل للناس قدراً نسبياً من الحياة اللينة الميسورة . فمنهم من ساوى في نظامه بين الافراد في الطبقة ونسي أن يساوي بينهم في المال ، ومنهم من ساوى بينهم في المال ونسي أن يساوي بينهم في الطبقة ، ومنهم من تعبَّدهم لاله أخرق اطلق عليه اعتباطاً اسم المصلحة العامة ، ومنهم من أطلق لهم حرية العمل بلا قيد ولا شرط ، ولكن واحداً من هؤلاء كلهم لم يستطع أن يفاخر ببلوغه ماكان ينشد او يطمع بالوصول اليه ! فلا مذهب التجاريين [1] ولا المذهب الحر [2]

---

١ ــ وهو النظام الذي اتبعته الدول في اتخاذها صفة التاجر والاكثار من جمع الذهب والفضة في خزائنها عن طريق التجارة بنفسها واقامة العقبات امام تجارة الافراد الخارجية . وقد بلغ هذا النظام اوجه في اواخر القرن السادس عشر .

٢ ــ ظهر هذا النظام في اوروبا قبيل الثورة الفرنسية ونادى به ابو الاقتصاد السياسي « آدم سميث » وكان شعار القائلين به : اطلقوا حرية العمل وحرية المرور ! فاشتد ساعد الاغنياء واتسعت الشقة بينهم وبين الفقراء واصبحت الحال من السوء ما انذر بثورة جديدة .

ولا الاشتراكية [1] ولا الرأسمالية [2] ولا الشيوعية [3] استطاعت أن توفر لابنائها ما استطاعه الاسلام من عيش هنيء وكرامة موفورة ، لان الزكاة فيه حق للمعسر لا منة فيه ، وفرض على الموسر لا تساهل فيه [4] يحملها الى صاحب الحق فيها طوعاً وعن طيبة خاطر ، او تؤخذ منه قسراً عن يد وهو صاغر .

---

١ ــ وهو المذهب الذي وضع لتفادي الكارثة الناتجة عن المذهب الحر ، ويقوم على اشراك العامل في الربح الذي يجنيه رب العمل . وقد وضع اسسه الالماني كارل ماركس ، مستعيناً بالمذهب السياسي المعروف بالمادية التاريخية .

٢ ــ وهو نظام يقوم على تشغيل رؤوس الاموال وتوسيع الانتاج لزيادة انواع السلع المستهلكة وخلق صناعات جديدة تتيح العمل لاكبر عدد ممكن من الناس .

٣ ــ مذهب اشتراكي يحرم الملكية الخاصة في جميع صورها ويتبع في التوزيع قاعدة يراها مثالية وهي : لكل على حسب حاجته ومن كل حسب مقدرته .

٤ ــ لما اختار الله رسوله الى جواره وحاول بعض المسلمين التحرر من دفع الزكاة ، قاتلهم ابو بكر بأحد عشر لواء كتب له فيها النصر عليهم ؛ وقد روي عنه لما نصحه عمر بان يدعهم وشأنهم انه قال له : اجبار في الجاهلية وخوار في الاسلام يا عمر ؟ انه قد انقطع الوحي وتم الدين . او ينقص وانا حي ؟ والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً (عنزة) كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها .

فموضوع الزكاة هو عين موضوع نظام الاسلام الاشتراكي الذي سما على كل النظم الاشتراكية الحديثة بمطابقته لواقع الحياة مطابقة لا أثر فيها لا للنظريات التجريبية ولا للآراء المتطرفة العقيمة . انه من الصحيح ان الاشتراكية الاسلامية ابقت على الطبقية بين الناس ولكنها حصرتها بالعلم والفضل والمعرفة ، واسقطت ميزة المال والجاه والحسب [1] من كل اعتبار ؛ وصحيح ايضاً

---

١ ـ في الحديث الشريف ان المسلمين سواسية كاسنان المشط وان لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى . ولما عير أبو ذر الغفاري بلالا الحبشي بامه الاعجمية ، وشكاه بلال الى الرسول الاعظم ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا اباذر ، ارفع رأسك فانظر ، ثم اعلم بانك لست بافضل من احمر فيها ولا اسود ، إلا ان تفضله بعمل . » وفي الفصول المأثورة ان عمرو بن العاص اجرى خيولا بمصر ، فسبقت الخيل فرس لمصري قال لما لاحت له : فرسي ورب الكعبة ! فضربه محمد بن عمرو بن العاص بالسوط وقال : خذها وانا ابن الاكرمين ! . . فشكا امره الى عمر بن الخطاب : فارسل بطلب محمد وابيه . ولما مثلا ، امر المصري ان يضرب بدرته الابن ثم الاب ، فضرب الأبن وامتنع عن ضرب الأب ، فقال عمر : والله ما ضربك ابنه الا بفضل سلطانه ، ثم التفت الى عمرو بن العاص وقال له : ايا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟

انها أطلقت للفرد حرية التصرف برأس ماله ، ولكن حذرته من تجميده [1] ورغّبته في الانفاق منه [2] وجعلت فيه نصيباً ضئيلاً لمن لم يؤت مثل ما أوتي من خير ؛ اما الاجر فقد جعلته عادلاً مرهوناً بمقدار السعي .

وفي الاشتراكية الاسلامية نواح أخرى تتعلّق بالميراث والضرائب وتوزيع الاموال وحصة المسنين والمرضى والمواليد الجدد ، مما لسنا في صدده ولكن مما يجدر ذكره والتأكيد عليه لاستكمال النظرة الاجمالية على موضوع هذه الاشتراكية .

اما فلسفة الحج الى البيت الحرام في موعده من كل عام ، فانها عميقة الاغوار متشعبة الجوانب ، فيها الغاية

---

١ – في القرآن الكريم : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون . »

٢ – في القرآن الكريم : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . » وفيه ايضاً : « واقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم . »

الدينية[١] والاهداف السياسية[٢] والاغراض التجارية[٣] والعلمية[٤] والاجتماعية[٥] ، وفيها أوّلاً وفوق كل ذلك زيارة السابقين المقربين في الوادي غير ذي الزرع الذي أسكن فيه ذريته سيدنا ابراهيم .

---

١ ـ للبحث والتشاور في امور الدين والدنيا لاتباع الافضل سنة وقياساً واجماعاً ورايا .

٢ ـ بصفته مؤتمر سنوي تدرس فيه القضايا السياسية وتوضع فيه المقررات الشورية عملا بالقول الكريم : « وامرهم شورى بينهم . »

٣ ـ موسم الحج موسم التبادل التجاري بين شتى الامم ومعرض شامل لمنتجاتها .

٤ ـ يتيح الحج فرصة التقاء التيارات الفكرية المختلفة الصادرة عن شتى شعوب وامصار العالم الاسلامي .

٥ ـ على اعتبار ان التقارب يؤدي الى التعارف والتوادد وايجاد صلات روحية جديدة .

الفصل الثامن

استطرادات

يالهي ؛ اذا كان ما انشره على الناس
لايغاير تعاليمك ، فان احداً في الارض
لن يقدر على طمسه او يجرأ على تجريحه .

كونفوشيوس

في العهد القديم [1] ان النبي موسى عليه السلام تسلّم من ربه لوحات حجرية فيها تعداد للوصايا الالهية التي ينبغي للشعب المختار ان يتقيد بها ليصبح جديراً بهذه التسمية الفريدة الكريمة . اما مضمون تلك الوصايا ، فاوامر عقيدية [2] ونواهٍ اجتماعية لاشك أن في اجتنابها الجماعي ضمانة لحماية الفرد الشخصية وراحته الفكرية والجسدية .

والتاريخ ، حتى في أبعد أزمنته المعروفة ، زاخر بامثلة كثيرة عن هذه النواهي التي لا يفتأ يعيدها ويكررها المصلحون من كل العصور لقناعتهم بضرورتها الطبيعية

---

١ ـ التوراة

٢ ـ الوصايا العشر كما وردت في الاصحاح العشرين من سفر التكوين تتلخص في الاوامر التالية : ا ـ لاتتخذ مع الله اله اخر ؛ ب ـ لاتصنع لك تمثالا ولا صورة تسجد لها ؛ ج ـ لاتنطق باسم الله بالباطل ؛ د ـ اكرم اباك وامك ؛ هـ ـ لاتقتل ؛ و ـ لاتزن ؛ ز ـ لاتسرق ؛ ح ـ لاتشهد شهادة زور ؛ ط ـ لاتشته بيت احد ؛ ط ـ لا تشته امرأة احد ولا شيئاً مما يملكه .

المطلقة في الحياة المشتركة . فما يستوقف النظر فيها ليس اتفاق هؤلاء مع الأئمة والحكماء على التبشير بمثل هذه الوصايا في شتى الامصار والعهود ، بل هو تأييد الواقع العجيب للتنبوءات الصادرة عن بعض الأنبياء في ذكر النتائج الدنيوية العاجلة التي تصيب صاحب العلاقة بالذات ، او تقع على فرد أو أكثر من ذريته أثناء حياته او بعد مماته ، لعمل صالح أو طالح بعينه ، كان قد قام به وهو مدرك لفعله .

فقد قال موسى عليه السلام في معرض نهيه عن القتل العمد بان « من يقتل نفساً وهو متعمد لا يموت إلاّ قتلاً » وفي الانجيل أن المسيح عيسى عليه السلام قال في بحثه عن الذنوب والآثام والعواقب الوخيمة المترتبة على مقترفيها بأن : « الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » وفي القرآن الكريم ، أن الله سبحانه وتعالى حفظ ليتيمين في المدينة كنزاً لهما ، لصلاح جدهما السابع لأمهما . وعن النبي العربي صلى الله عليه وسلم انه قال : بشّر

القاتل بالقتل ولو بعد حين ، وبشّر الزاني بالفقر ولو بعد حين .

وغني عن القول بان صراحة التشريعات الاسلامية وغيرها في ذكر الجرائم وعقوباتها ، تنفي ان تكون الغاية من هذه الآيات والاحاديث والاقوال الكريمة هي البحث في حالات جرمية كان الشرع أو القانون قد اقتصّ في حينه من أصحابها . فالمقصود منها هنا هو تلك الجرائم التي يتوهم مقترفوها أنهم في منجاة من عقوبتها لجهل الناس بها أو عدم اطلاع أولي الأمر عليها ، او عجز السلطات عن تنفيذ أحكام الشرع او القضاء فيها لعدم توفر ادلة اقترافها او لمناعة أصحابها .

وتدل الأمثلة السائرة على ألسنة الناس والقصص والاستشهادات المتداولة بينهم [٢] ، على وفرة الدلائل والحوادث المؤيدة لحالات انتقال العواقب من السلف

---

١ ــ كتعليل فجيعة أحدهم بولده نتيجة تعد سابق على مال يتيم ، او تفسير ضياع امواله بسبب كسب حرام كان جناه ابوه الخ . . .

الى الخلف مع أن أبسط قواعد المنطق تقضي بأن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن لا تتعدى المسؤولية والجزاء شخص الفاعل بالذات ، وان لا يتحمل الاولاد نتيجة ما اكل الآباء من حصرم أو غيره .

ولكن المنطق والقانون بحد ذاتهما وثيقي العلاقة بالعرف والعادة والبيئة ، ولا يجوز بحال أن نقيم مقارنة مقبولة بين مفاهيمها في العوالم الحسية ومفاهيمها في عوالم ما وراء العقل والمادة حيث تختلف المقاييس والأوزان والاحكام ، وحيث يتلاشى الفرد في مجموعة اخلافه واسلافه وكتلة سلالاته .

فالعلة إذاً لا تكمن في مجالات ما ألفناه من علوم وفنون وتعاريف ، بل في ميادين غريبة رائعة ، ميادين الميتافيزية العلمية الحديثة ذات المسالك الخفية التي لن يهتدي اليها الا من أفسح في نفسه مجالاً لتقبل نظرياتها بالقبول الحسن وتحرّر من ربقة المألوف من التعاريف والآراء

المسبقة المقطوعة ، ثم تتبع جاداً سلسلة الاستنتاجات العتيدة .

لقد تحدثنا في باب الوراثة عما اثبته العلم . من أن الخلية الحية تستولد من ذاتها خلية حية مماثله لها ، وان خلايا البويضة والنطفة المنوية هي جزء من خلايا الجسد الأصلي ، وان الكائن الحي الذي نشأ بنتيجة اتحاد هذه الخلايا وتوالدها وتحولها يعتبر بلا مراء امتداد لذات ذلك الجسد الحي الأصلي .

فاذا سلمنا بهذه الوحدة في سلالاتنا السابقة واللاحقة ، وهو ما يجب أن نسلم به بحكم العلم والواقع ، رأينا أن أحكامنا على ما كنا نتوهم انه المنطق الصحيح قد تبدلت فجأة ، وزال تعجبنا من نتائج حسنة أو سيئة يجنيها الخلف عن السلف ، وتفتحت أمامنا مغاليق أبواب لم نكن نحلم حتى بوجودها[1] .

يتضح مما سبق أن مطابقتنا الفيزيولوجية مع من

---

١ – راجع الاصحاح العشرين من سفر الخروج في التوراة للاطلاع على الآراء الموسوية .

سبقنا ومن يلحقنا من سلالاتنا امر واقع لا يشوبه الشك وان وحدتنا الروحية معهم بالتالي أكيدة ، وان خلايا المخ التي يبعث تفاعلها الفيزيا ـ كيميائي بالتيارات الكهربائية المصاحبة لكل فكرة طارئة هي الخلايا الوحيدة التي لا تتبدل في الجسم البشري أثناء الحياة . فاذا كان الأمر كذلك ، فالتيار المنبعث من المخ يكون قريب الشبه الى حد بعيد في قوته وتواتره بقوة وتواتر التيارات المنبعثة من مخ السلف . وكلما قربت الصلة في النسب ، قرب الشبه في التيار الصادر حتى ليكاد يكون واحداً في الام وابنها او الاب وولده .

ومن ناحية أخرى يجب أن لا يسهى عن بالنا بان آراءنا وأعمالنا وتصرفاتنا تتأثر بالغاً بحالة العناصر المولدة للتفاعلات الفيزيا ـ كيميائية ، وان حالة هذه العناصر وثيقة الارتباط بما تثبته فيها خلايا الجزء المتضمن العقل

الباطن في المخ [1] وبما ينطلق عن الغير من تيارات مواتية او معاكسة .

وسنورد على سبيل الايضاح عدة أمثلة عن اكثر الحالات شيوعاً في مجتمعنا لتحليلها تحليلاً استنتاجياً على ضوء المعلومات التي سبق اثباتها علمياً .

فاذا افترضنا مثلاً حالة غضب أحد الوالدين أو كلاهما لسبب من الاسباب على الولد ، فان ما نشاهده لدى الولد بنتيجة هذا الوضع ، هو اضطراب في تفكيره وخطأ في محاكمته يؤديان به إلى فقدان ثقته بنفسه ، فتفشل بطبيعة الحال محاولاته فتتبدد آماله وتتلاشى مثله وتتبدل تبعاً لذلك نفسيته ويمسي صورة عن شخصية مستقلة يائسة معروفة بشخصية المغضوب .

اما تفسير ما وقع فهو ان التراث الديني الذي حملته

---

١ – يؤكد الدكتور فورونوف وجود منطقة في المخ تتضمن العقل الباطن وتؤثر تأثيراً مباشراً على العقل الواعي ، وتقع في الجزء المتوسط من المخ .

الأجيال المتعاقبة قد تغلغل في العقل الباطن واصبح شرطاً من شروط سلامته. ولمّا كانت الحيازة لرضاء الوالدين تدخل في صلب التعاليم الدينية، فان اي سلوك يصدر عن الولد ويؤدي إلى فقدان هذا الرضاء، يجعل خللاً في توازن حجيرات العقل الباطن، يظهر أثره للتو في العقل الواعي، بالاضافة إلى أن التيارات الكهربائية العنيفة المنبعثة عن الوالدين الغاضبين المتحفزين تعيق العمل الفيزيا - كيميائي لدى الولد فينجم عن ذلك ما ذكرناه من بلبلة واضطراب.

وقد يخطر لأحدنا أن يتساءل عما إذا كان من الممكن ان يحدث عين هذا التفاعل باتجاه عكسي في حالة غضب الولد على أحد الوالدين او كلاهما لسبب يعتبره كثير الخطورة. ان الجواب على ذلك ايجابي على التحقيق لو ان ذلك التراث الديني كان يتضمن عكس ما كان يتضمنه وكان النص يوجب الحرمة على الوالدين بدلاً من الولد.

ولكن الحكمة البالغة من فرض هذه الحرمة على الولد هي الاستجابة الرائعة لحقيقة ما يتمناه هذا الولد لنفسه وما يرجوه من اولاده إذا بلغ به العمر الى ما بلغ به والديه.

ولنورد الآن مثالاً آخر من سلسلة الأمثلة المألوفة في السلالة الواحدة، كأن يقوم أحد الآباء والأجداد باعمال إرادية منافية للشرع والقانون وان يكون قد افلت لعلة ما من القصاص، ثم أن يطرأ في مستقبل الأيام على الابن أو السبط او الحفيد ما يمكن ان يفسر بانه عقاب لما كان اقدم عليه السلف [1].

ومرد هذا الواقع يعود أيضاً إلى ما اورثه العقل الباطن الى الخلف من اضطراب في عمل خلاياه بنتيجة إقدام السلف على ما يعلم بانه ممنوع أو حرام. امّا إذا كانت فعلته قد صدرت عنه بصورة عفوية او عن نية حسنة ولكن ترتب عليها نتائج سيئة انتقلت إلى ذرية المجنى عليه،

---

١ ــ اشارة الى قول المسيح عليه السلام: الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون.

فان التيارات المنبعثة عن الذرية المكلومة باتجاه اخلاف مسبّب الاساءة تفعل عين الفعل في خلايام العقلية وتبلبل عملها الفيزيا ـ كيميائي حتى يقعوا بهذا الذي يعتبره الناس تكفيراً لما صدر عن السلف .

اما الحالات الفيزيولوجية التي تظهر في الخلف والناتجة عن ممارسة السلف لبعض المحرمات كالإدمان على الخمر او المخدرات أو الاسراف في الملذات ، فانها مرضية محضة ولا علاقة لها بموضوع هذه الدراسة .

ومن الأمثلة المعروفة التي لا شك في صحتها مثل القاتل الذي يقضي قتلاً اذا ما كان قد أقدم على فعلته وهو مصمم لها ومصر عليها . فالقتل ، وهو اكبر الكبائر على الإطلاق ، يكشف عن مرض في النفس ناشيء عن اضطراب في الغدد الصم [1]

---

١ ـ يقول الاستاذ « ا. كريس موريسون » رئيس اكاديمية العلوم بنيويورك ، في كتابه : « ان الانسان لايقوم وحده » اثناء بحثه في الغدد الصم : « ومن المتفق عليه انه اذا اختل توازن هذه الافرازات المعقدة تعقيداً مدهشاً ، فانها تحدث اختلالا ذهنياً وجسمانياً بالغ الخطر . ولو عمت هذه الكارثة لاندثرت المدنية وانحطت البشرية الى حالة الحيوانات ، هذا اذا بقيت على قيد الحياة » .

التي تمد خلايا المخ بالعناصر اللازمة لتأمين تفاعلها الطبيعي ، فاذا ما وقع الاضطراب فيها ، تبدلت نسب عناصرها ، فاختل عمل تلك الخلايا وتحور تفاعلها ، فجاء المظهر الحسي للفكرة خارجاً عن الاطار الطبيعي للحياة الاجتماعية . ولما كان من البديهي أن تظل هذه الحالة المرضية قائمة اذا لم يقيّض لها العلاج الناجع للحد من تطورها ومنع تفاقمها [1] ، وكان من الطبيعي ايضاً ان ينجذب شبيه الشيء اليه ، فان تصرفات ذلك المريض في البيئة الموبوءة الخطرة التي اختارها لنفسه ستتكفل بايراده موارد هلاكه على ايدي من كانوا على شاكلته .

---

١ ــ مصداقاً للقول الكريم في القرآن العظيم : ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب .

الفصل التاسع

في القصاص حياة

ليس الفاضل من يقول الناس عنه كذلك ، انما الفاضل حقاً هو الذي يملك الجرأة على ان يكشف عن نفسه لنفسه ولكل من له صلة به ، وهو واع لقوله ومدرك لحقيقته .

من آيات كتاب الفيدا

لقد ثبت علمياً مما ورد في : « تاريخ الظلام » ان المخلوقات البشرية رهن نشاط غددها الصم وان ما ندعوه « الطبيعة » التي تملي على انسان ما تصرفاته الشخصية ، هي المرآة الصادقه التي تعكس حالة هذه الغدد او بعبارة اخرى هي النتيجة الحتمية لهذه الحالة .

فالمجرم العادي الذي دلّ التشريح الطبّي على ضخامةٍ في حجم غدته الدرقية ، يصبح مجرماً ضارياً اذا رافق هذه الضخامة ازدياد في مفرز الخصيتين . امّا اذا اجتث جزء من هذه الغدة وانتظم تعاون مفرزها مع الغدة النخامية ، غلبت صفات التعقل والرزانة وتلاشت الرغبة في الاجرام ؛ ولكن اذا استؤصلت الغدة بكاملها ، فيه أو في غيره ، تلعثم الكلام وتوقف النمو وحلّت البلاهة محل كل تفكير .

ونحن ، عندما نطلق صفة الشجاعة أو الجبن على فرد تتسم أعماله بطابع البسالة أو الخوف ، نكاد نعني أن خصيتيه نشيطتان في افرازهما او كسولتان فيه ؛ واذا ما قلنا عن فلان انه متزن وعاقل ، فان قولنا شهادة اتساق تعاون غدته النخامية مع غدته الدرقية ؛ وعندما نقر لفلان بالذكاء والقدرة على الحفظ والاستظهار ، فكأننا نقر لغدته الصنوبرية بالتفوق في الوزن والحجم المعتادين لدى بقية الناس .

ان الملكات على اختلافها موزعة بين الغدد الصم وبين حجيرات المخ ، كما فصّلنا ذلك في باب « نحن وعقولنا » ، وليس لأي إنسان حيلة في إيجادها أو إزالتها . أما مبلغ ما يستطيعه المرء في هذا المضمار ، إراديا أو لا إراديا ، فهو استغلال لقدرتها او اهمال يؤدي الى خمول نشاطها .

وقد طرق جماعة المعتزلة هذا الموضوع من الوجهة الميتافيزية ، لانعدام العناصر الأساسية والمعطيات العلمية الفيزيولوجية آنذاك ، وتكلموا في الارادة الجزئية ، وأصابوا

في أبحاثهم ، نتيجة تفكيرهم وتأملاتهم ، قسطاً وافراً من الحقيقة المؤكدة ، غير أن الواقع العلمي الذي يؤيد كل التأييد العقيدة الدينية القائلة بانعدام صفة الاختيار لدى الانسان ، يتوقف عند حده المادي على أبواب الفلسفة الدينية والاجتماعية لباقي على عاتقها مهمة تعليل الحكمة من وجود أحكام القصاص الشرعية والعقوبات الأخروية والتشريعات القضائية والجزائية [1] طالما ان مسؤولية الفرد ساقطة حكماً بعرفه وبعرف الدين معاً [2] .

ان كل تصرف من تصرفات الكائن الحي يتميز بصفتين : صفة شكلية وصفة نوعية . فالصفة الشكلية هي التسمية التي يطلقها المجتمع على فعل بذاته بالنسبة لنتائجه كالسرقة والكذب والزنى وغيرها . اما الصفة النوعية ، فهي زمرة الافعال المتماثلة او المتسلسلة [3] التي يكون مبعثها حال

---

١ ـ ولو انها اصبحت تقول مؤخراً بمرض المجرم .

٢ ـ على اعتبار ان الانسان مخلوق مسير .

٣ ـ اي التي تستدعي الواحدة منها الاخرى كالادمان في الاجرام خوف العقاب او الاصرار على الكذب لنفي جرم مقترف .

مرضية فيزيولوجية في غدة او اكثر من جسم ذلك الكائن

فالفرد الذي لم يقيّض له اختيار غدده أثناء تكوينه ولا يملك القدرة على تبديل حجمها او تنسيق مفرزها في الاحوال العادية ، لا يمكن أن يُعتبر مسؤولاً عن حالها وبالتالي عن مجمل شخصيته ، صالحة كانت أو طالحة ؛ لذا فاننا نرى ان مبدأ عدم المسؤولية في ما يتعلق بما دعوناه الصفة النوعية امر لا يحتاج تقريره إلى جدال ولا كبير عناء . امّا إذا تجاوزت الأمور طور الاستعداد لتنتقل الى طور الشروع بالتنفيذ ، فان هذه المرحلة تستدعي بالضرورة تدخل المظهر الاصلي لنوع الجنس البشري والمعروف بالارادة .

وممارسة الارادة غير الغريزية ، هذه الارادة التي تعرّفها الفلسفة أنها الاداة التي نستعين بها لاستشفاف ما خفي عنا في الطبيعة وفي أنفسنا ، تستلزم بصورة حتمية حركة جسدية هي في الواقع جزءها المادي الذي يترجمها ويفصح

عن مراميها . فاذا ما توضحت هذه الإرادة للبصر والبصيرة على السواء واصبح من الممكن مشاهدتها وتبيّن نوعها وكنهها واهدافها ، تدخلت العقيدة والاخلاق والبيئة والحاجة والميول الشخصية لحثها أو صدّها ، والزمتها منذ تلك اللحظة مسؤولية نتائج سعيها .

والقصاص على اختلاف درجاته وأنواعه هو التعويض الرمزي ، مادياً كان أو معنوياً ، الذي يطالب كل واحد من هذه العوامل لقاء ما لحقه من أذى او ما أصابه من اختلال في نظامه من جراء تعنت الفرد واصراره على اقتراف ما لا يحل او الامتناع عما يجب ، على الرغم من وضوح صورة إرادته في أيٍ من الاتجاهين ، السلبي او الايجابي .

ويتضمن مفهوم العقوبة معنى الردع وقصد التوجيه والتقويم لضمان عدم التكرار ضماناً قطعياً في الأحكام الشرعية الاسلامية ، ونسبياً في بقية التشريعات الجزائية ،

ويكون تحققها عند افتآت الفرد على حق الآخرين في ممارسة هذه الارادة التي يعتبر إعلانها من قبله إقراراً ضمنياً بحقهم فيها . فالتجاوز على حدودهم ، بعلمهم أو في غفلة منهم ، إلاّ ما كان برضائهم وقبولهم ، يعرض المعتدي الى خطر نبذه والالقاء به وراء السياج الاجتماعي حيث الوحدة القسرية والعيش الزري .

ولما كان الانسان اجتماعياً بالفطرة ، لا يمكن ان يدرك طعماً ولا معنىً للحياة وحيداً ، فان الرهبة من القصاص لدى هؤلاء المصابين في غددهم ، ان لم يكن القصاص بذاته ، تبتر الجزء المادي أو المظهر الحسي لارادتهم السلبية فتشل جزءها المعنوي شللاً يكون بحسب درجة الاصابة العضوية أو قسوة العقوبة ، موقتاً أو دائماً ، فيمسون طيلة هذه الفترة في مأمن من ثورة المجتمع عليهم وشر تنغيص حياتهم .

فحالة الانسجام هذه بين أفراد الوحدة الاجتماعية ، من مصابين وغير مصابين ، والتي وفّرت للجميع شروط

الطمأنينة والحرية الشخصية ، واتاحت لهم فرصة العيش باقرب أشكاله الى الحياة، يكون مبعثها في الأصل ذلك الوازع الذي اوجده القصاص الرادع أو العقوبة الزجرية .

وفي اعتقادي أن الدراسة التحليلية والمعالجة الفلسفية البسيكولوجية لاتحيط وحدها بكل جوانب الحكمة المودعة في الآية الكريمة المتعلقة بالقصاص [1] ، وانه لا بد أن يكون في المعنى شمول واطلاق يتعدى الفرد بذاته والظرف بعينه إلى السلالات البشرية والزمن المطلق . وقد تبيّن من تقصّي التطورات الحديثة لعلم الوراثة ان كثيراً من الصفات المكتسبة التي يعتادها المرء حتى تمسي بحكم الأصلية تنتقل بالوراثة إلى أخلافه [2] ، مما لا يدع مجالا للشك ان صلاح السلالة ، وبالتالي حياتها ، مرهون الى حد كبير بصلاح السلف ، فطرياً كان صلاحه او كسبياً .

---

١ ــ ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب .

٢ ــ راجع بحث الوراثة في هذا الكتاب .

الفصل العاشر

وأصلح بالهم

ان سعادتنا لا تقتصر ، ويجب ان لا تقتصر ، على المتعة الدنيوية المطلقة ، بل على الرقي المضطرد والجدة الدائمة في المثل وسبل الغبطة لننعم بالطمأنينة والسكينة النفسية .

ليبنتز

في كتب السيرة ان النبي صلّى الله عليه وسلم كان لا يفتأ آناء ليله وأطراف نهاره يدعو لنفسه وللمؤمنين بالعفو والعافية والخير العميم في الدنيا والآخرة ويلح بالرجاء في طلب العقل العاقل والايمان الكامل ، وهو النبي المرسل وأعقل من عليها طراً .

وفي القرآن الكريم ان : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم ، كفّر عنهم سيآتهم واصلح بالهم [1] » .

والعقل العاقل وصلاح البال وطمأنينة القلب تعابير عقيدية متشابهة تعني كلها ما اتفق الفلاسفة على تسميته بالسكينة النفسية وقطعوا بانه الهبة الثمينة الرائعة التي يدخرها الله لاصفيائه ولا يمنحها إلاّ بقدر ، بينما أن

---

١ ـ الآية ٢ من سورة محمد

طيبات الحياة من ثراء وصحة وجمال وقوة وشهرة وذكاء موزعة بين العباد بلا حساب .

وقد كان الحكماء أمثال «ماركوس اوريليوس»[1] الروماني و «لاوو - تسي»[2] الصيني ومن قبلهما النبي «داوود» عليه السلام يبتهلون الى ربهم أن : «خلّ يارب نعم الحياة تحت أقدام الحمقى وارزقنا عقلاً غير مضطرب» . وذكر الدكتور «ليمان»[3] انه وضع مرة وهو شاب جدولا بطيبات الحياة المعترف بها فكتب بياناً بالرغائب الدنيوية ادرج فيه الصحة والحب والموهبة والقوة والثراء والشهرة، ثم تقدم به في زهو الى صديق له شيخ حكيم ، فقال له الشيخ بعد أن اطلع عليه : «جدول بديع ياصديقي ، وهو

---

١ — «ماركوس اوريليوس» افضل الاباطرة اليونانيين وأوسعهم اطلاعاً بالادب والفلسفة ، حكم بلاده من عام ١٦١ الى ١٨٠ للميلاد .

٢ — «لاوو - تسي» ، فيلسوف صيني عاش في القرن السادس قبل المسيح وصاحب كتاب : «السبيل الامثل والفضيلة» .

٣ — هو الدكتور الاميركي «ي . لوث ليمان» اخصائي علم النفس وصاحب كتاب «سكينة النفس» .

موضوع على ترتيب يمكن اعتباره معقولاً لولا أنك أغفلت العنصر الاساسي الذي تصبح رغائب جدولك بدونه عبئاً ثقيلاً لا يطاق . » ثم ضرب بالقلم على الجدول كله وكتب كلمتين · سكينة النفس ! .

ويتضح من هذا الاسراف في الحرص على الفوز بالسكينة النفسية أنها ولا شك ذات أثر بالغ في توفير السعادة وانها بلا نزاع أعظم خير يرتجى في هذه الحياة ، والذين أوتوها يعلمون وحدهم مقدار فعاليتها وقوتها وشمولها لكافة ما يتصل بالكائن الحي في نواحيه المادية والمعنوية معاً فالكوخ يتحول بفعل سحرها إلى قصر منيف رحيب والمرض يتخذ بفضلها شكل زيارة عابرة فيها للفكر راحة الزامية ، وتنقلب المصائب والصدمات بواسطتها ظروفاً طارئة موقتة فيها لأنفسنا نواحي نفع عديدة .

والسكينة النفسية ضرورة طبيعية وحال نادرة قد لا يكون من الميسور الحصول عليها بالسعي السطحي والجهد

العابر ، ولكنها ليست بالمستعصية ولا بالمستحيل منالها إذا أحسن الإنسان سبيل التماسها . ولعل أقرب مسالك هذه السبيل وأيسرها ، أصعبها تصديقاً وأبعدها عن الخاطر وهي توقير الذات واحترامها ومحبتها حباً عميقاً صادقاً .

وقد ذكر أن رجلاً من مشاهير العاملين في الخدمة الاجتماعية تلقى رسالة من سيدة تريد أن تنضم اليه في كفاحه لمساعدة الفقراء ، تكلمت فيها باسهاب عن نقائصها وختمت رسالتها بقولها أنها ترجو أن تعوض حماستها لكفاحه مابها من نقائص ؛ فكتب إليها بهذا الرد الوجيز : « سيدتي العزيزة ، إن نقائصك البديعة هي حقاً في غاية العظمة . وما من شيء يمنعك أن تصبي بها ضحايا وداعتك . وأنا أنصح لك بان تزيدي من حبك لنفسك قبل أن تبعثري حبك على الغير . »

وقد يذهب البعض إلى القول بان المصاب بالعمى الروحي هو الوحيد الذي يغالي بتوقير ذاته ، وان من بلاء

المجتمع اسراف الناس في محبتهم لانفسهم بينما أن الغاية الحقيقية للحياة هي انكار الذات في خدمة الغير .

ولكنني لا أخال هذا التقدير للطبيعة الانسانية صحيحاً من كل الوجوه لأن احترام الذات برأيي هو الأصل في الايثار والتضحية الخالية من شوائب الأنانيّة والنفعيّة . ولعلّ القول المأثور أن ابدأ بنفسك ثم باخيك ، وما أمر به كونفوشيوس العظيم من ان نعامل الناس بما نتمنّى أن يعاملونا به ، هي في اساس هذا الاحترام الذاتي والمحبة الشخصية .

وقد قال النبي العربي في حديثه الشريف ان : « اكرموا جوار نعم الله ، لا تنفّروها ، فانها قلّما ذهبت عن قوم وعادت إليهم » . وقد أجمع الفقهاء على أن القصد من نعم الله هو الجسد واعضاؤه من عينين وأذنين ولسان وشفتين بالاضافة إلى غيرها من النعم المعروفة . فاذا كان الاكرام شكل من أشكال المحبة ، فان الذي لا تنطوي

نفسه على محبة اكيدة لذات شخصه ورعاية صحيحة لكفاياته ومواهبه ، لا يمكن لها أن تشعر بأي احترام او رعاية للغير [1] ، إلاّ إذا كان من زمرة المرضى بالازدراء النفسي والذين يرهقون عقولهم واجسامهم بالاحساس الدائم بالنقص والانتقاد المتصل لانفسهم والنيل منها في كل مناسبة مقابل اضفاء كل الفضائل على جيرانهم ومعارفهم وعزو التفوق إليهم والمبالغة في امتداح صفاتهم وكفاياتهم . ولو أنهم كانوا أكثر تعمقاً بمظاهر غيرهم او كانوا اكثر معرفة بانفسهم ، لترفّقوا بأحكامهم عليها وأدركوا أن الناس جميعاً ، رجالاً ونساءً ، انداد لهم وانهم يحملون مثلهم في أعماقهم ندوبا عميقة من معارك كثيرة خسروها وان النفوس على اختلاف صورها مجموعة من أوجه القوة والضعف يجب أن نحترمها بكل نقائصها ومزاياها ليتسنى لنا محبتها ومعرفتها وتشجيعها وتبديل مايجب تبديله فيها دون

---

١ ـ فاقد الشيء لا يعطيه .

ان نغض من قيمتها او نغالي بفضائلها .

ان أمثلة التحقير الذاتي متوفرة في المجتمع بشكل يدعو للأسف والأسى . فالادمان على المسكر والمخدرات حتى ضعيفها [1] والاقبال على الفسق والفجور واقتناص الملذات الدنيئة ، والاقدام على التشويه الخلقي والجسدي بما فيه الانتحار ، كلها أفعال جرمية لا ضد أنفسنا فحسب بل ضد الجماعة أيضاً .

ومتى تمّ لانسان ما ادراك المعنى والغاية من هذا الاحترام وفرّق بينه وبين تدليل الذات والاغراق في تمجيدها ، امسك بطرف السلسلة المتتابعة المؤدية إلى سيادة النفس ومنها إلى طمأنينتها وسكينتها ؛ اما اذا افسح للاعتقاد الخاطىء بنقصه المطلق مجالاً للسيطرة عليه ، اختل توازنه وتأرجحت إرادته وتحول إلى زئبق رجراج

---

١ ـ المخدرات شديدة التأثير هي الافيون والكوكائين والقنب الهندي المعروف بالحشيش ، وضعيفه التبغ والتنباك والمضغة والعطوس وغيرها مما يطلق عليه اسم المكيفات .

مهما كانت كفائته وموهبته .

أما المسالك الأخرى ، فانه يأتي في طليعتها إيجاد صلة بيننا وبين الاعمال النبيلة من اجتماعية وفنية وادبية،ويليه عن كثب التعلّم على تقدير الاشياء المتفاوتة حق قدرها وترويض النفس على التضحية ببعضها مما نتوهم فيه الخير واللذة ونبذ جزء كبير منها ليكون استيلاؤنا على غيرها اقوى وأتم . وتكتمل الحلقة بتوفر الرحمة والأمل الوئيد ويصبح عندئذ بوسع أي إنسان أن يفاخر بثروته الروحية ذات المعين الذي لا ينضب .

ويجب أن لا يغرب عن البال أن هذه الصفات المتفرقة عناصر غير متلازمة في احلال السكينة في النفس البشرية ، وانها تعمل كل واحدة بمفردها في صياغة قسطها من ذلك الكنز الرائع مما يحيل كل المحاولات المرتجلة في سبيل الحصول على مجمله جهوداً عقيمة لا تورث الا النصب والقلق ، ويجعل الجري العنيف وراءها سباقاً خاسراً سلفاً .

ولا يتبدّى جلال الحياة للانسان الحي إلاّ عندما يكف عن التقليل من شأن نفسه ويعترف لها بالقوة على مواجهة مشاكل عالمه ولا يزن نفسه إلاّ بميزان الخير والثقافة ثم يقتنع بانه إذا كان محدوداً في بعض النواحي ، فان له اقتداراً في نواح اخرى كثيرة وان العبقرية هبة نادرة ، وان التوسط هو حظ الاكثرين منا وان ميادين الجدّة والكسب والفائدة مترامية الاطراف على طول طريق الحياة ، لا حد لها ولا نهاية .

فاذا تسلحنا بمثل هذه المعرفة والقناعة وأوتينا الحزم والشجاعة والعزم على مواجهة واقعنا وتغيير ما يجب تغييره في انفسنا بعد أن نكون قد تقبلناها على حقيقتها وتعلمنا اصول احترامها وفنّ محبتها على الوجه الصحيح ، فاننا نكون قد عثرنا على السبيل المؤدية الى الطمأنينة وصلاح البال ولا يعود يعيينا ان نحيا الحياة الطبيعية الهادئة التي نتمنى ونريد .

الفصل الحادي عشر

المقدمة اللاحقة

انني اؤكد ان ما من بحث عقيم او علم اجوف الا وتجده في كتب الفلسفة الميتافيزية المحضة .

شيشرون

يقول العالم الايطالي « فيكو » ان كافة الأحداث العلمية والتاريخية خاضعة لقوانين الفكر البشري ، وأن كل الحادثات والمستحدثات هي المظهر الحسي لفكرة استولدتها عقولنا واقتضتها ضرورة عادلة ولو لم تكن شاملة .

وقد يزعم العقل بتفكيره في كل ذلك ، بالاضافة الى ما يشاهده من وحدة واتساق في نظام التقدم الانساني المضطرد ، أنه قادر على تفسير بعض الوقائع التي لا تزال مستعصية على العلم والمنطق ؛ ولكن زعمه وجهده ، ان هو لم يكف عن التوهم بانه المحور والدائرة ، لن يعدوا ان يكونا مجرد محاولات فلسفية لربط الواسطة بالغاية ، او للتقريب بين الفعل والنتيجة .

ومثل هذه الفلسفة التي لا تتعرض للأخلاق والمعتقدات الاساسية والآراء السياسية وتقتصر على الميادين الميتافيزية

وحدها في حل بعض المعضلات الفكرية والعقلية ، فلسفة بريئة لا خوف منها ولا خطر على أصحابها لأن بجمل ما تجري به أقلامهم عبارة عن ألفاظ مبهمة تصوغها أفكار غامضة لا يفهم اكثر الناس منها شيئاً لسبب وجيه أصلي هو أنه ليس فيها ما يُفهم .

اما الفلسفة الثورية ، وهي تسمية مجازية محضة ، إذ أن اصحابها قوم مسالمون بالسليقة وآراءهم وأقوالهم ليّنة مشرقة ، فانها لا تنطبق إلّا على النتائج الانقلابية التي قد تترتب عليها من جراء تبنّي المجتمع لها ، او على رد الفعل السلبي الذي قد يصيب المنادي والمدين بها [1] ، لأن تعليم الحكمة وبث الفضيلة وانشاء العقيدة الصحيحة وتفصيل الحكم الصالح ، مثاليات لم يتقبلها عصر من العصور الاّ بعد مقاومة شديدة تجلّت في الأحكام الجائرة التي اودت بحياة كثير من المصلحين وشردت الباقين

---

١ ـ لقد حكم على سقراط بالموت قتلا بالسم يجرعه بنفسه .

تحت كل سماء [1] .

واذا كان الجهل والانانية والغيرة الحمقاء هي في اصل هذه المقاومة العنيدة والأحكام العاتية ، وهو مما لا يشك به أحد ، فانه خليق بنا ان نسعى ما استطعنا لاستجلاء حقيقة ذاتنا ليتسنى لنا ادراك سر تصرفاتنا ومن ثم معالجة نواحي الضعف والنقص في نفوسنا .

وقد اشتققت في هذا الحيّز الصغير لتحقيق ذلك القصد الصريح ، حقائق جديدة باثارة اهتمام المفكرين الذين يروق لهم ان يجمعوا التأمل والتفكير الى العلم والايمان ، وجمعت وقائع من اهم العلوم والبحوث الموقوفة على قلّة اخصائية ، وعرضت باختصار وبساطة ، بقدر ما استطعت ، مسائل فنيّة معقدة ، واستعنت بامثلة صحيحة في ايراد آراء شخصية ، لاسترعي انتباه هذه الفئة الى ما أصبح من الممكن اثباته بعد أن طال تمرده ، ونقر معاً أن الهوة السحيقة المزعومة بين

---

١ ـ امثال كونفشيوس وافلاطون .

الميتافيزية والواقع المادي هي أقل تمنعاً على الادراك مما كنا نتوهمه. واذا ما افترضنا الخطأ في البعض من الآراء والاستنتاجات، او قلنا بانها عرضة للتعديل أو التبديل، فان انسجامها مع مجموعة المعارف الحاضرة يشفع لنا ويكاد يؤكد أن عناصرها الأساسية لن يطرأ عليها تبديل يذكر.

أبحاث الكتاب

المقدمة	مصباح ديوجين	١
الفصل الأول	نحن وعقولنا	٥
الفصل الثاني	تاريخ الظلام	٢٤
الفصل الثالث	القصة العجيبة	٤٠
الفصل الرابع	شخصياتنا	٤٩
الفصل الخامس	العقل الباطن	٦٣
الفصل السادس	العبقرية الخلقية	٧٥
الفصل السابع	حكم وأحكام	١٠٥
الفصل الثامن	استطرادات	١٢٥
الفصل التاسع	في الفصاص حياة	١٣٧
الفصل العاشر	واصلح بالهم	١٤٥
الفصل الحادي عشر	المقدمة اللاحقة	١٥٥

قيد الطبع للمؤلف

البرج المكسور . . . . . ادب وفلسفة

المخيَّر أنت أم مسيَّر . . . . . ابحاث عقيدية

فلسفة العقائد . . . . . آراء ونظريات

تمت الطبعة الاولى من كتاب « دروب النيرفانا »
في دمشق بتاريخ العاشر من شهر تشرين الاول
من عام الف وتسعماية وتسع وخمسين .

٣٠٠

M. G. E. MOLLA
L. E. P.

LES SENTIERS DU NIRVANA

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072571530